FROM THE AUTHOR OF "STORY OF SOMEONE"

دوكسا

FIRASS JUBRANE

What if you were wrong all along?

What if you were wrong all along?

FIRASS JUBRANE

2026

All the events in this story are inspired by fiction and any resemblance to this events, personalities or names it is coincidence no more.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الإهداء

إلى الذين صدّقوا ذاكرتهم أكثر مما صدّقوا الحقيقة.

جوبا

How far would you go to protect a lie?

مقدمة

ثمة كلمةٌ يونانيةٌ قديمة، "دوكسا"، لا تعني الحقيقة، بل ما نظنّه حقيقة. إنها ذلك اليقين الذي لا نبنيه بأنفسنا، بل نرثه، نتنفّسه، نمشي عليه دون أن نسأل يوماً من صبّ له أساساته. الدوكسا ليست كذباً؛ فالكاذب يعرف أنه يكذب. الدوكسا أخطر من ذلك بكثير: إنها الإيمان الذي لا يشكّ في نفسه، لأنه لم يُختَبَر قط.

هذه روايةٌ عن رجلٍ وُلد وهو يعرف كل شيء عن العالم، إلا شيئاً واحداً: أن يشكّ.

يوهان لم يكسب يقينه، بل ورثه، كما ورث اسمه وبيته وحسابه المصرفي، جزءاً من ميراثٍ لا يُذكر في أي وصية، لكنه أثقل من كل ما فيها. وحين تبدأ الحياة، ذات مساءٍ عابر، بأن تهمس له بأن شيئاً ما ليس كما ظنّ، لا يجدُ في داخله عضلةَ الشكّ التي يحتاجها ليواجه تلك الهمسة؛ فالشكّ، مثل أي عضلةٍ أخرى، يحتاج إلى تمرين، وهو لم يُضطَرّ يوماً لتحريكها.

فيبدأ، بلا وعيٍ منه، ببناء حقيقته الخاصة، حجراً حجراً: من الرائحة، ومن الساعة المنسية، ومن كلمةٍ سقطت سهواً من فم طبيبٍ متعب. ولأن العقل يكره الفراغ أكثر مما يكره الألم، فإنه يملأ كل صمتٍ بقصة، وكل غموضٍ بمذنب، حتى يصدّق، في النهاية، أن النسيج الذي حاكه بيديه هو الحقيقة التي وُلد بها.

هذه ليست فقط روايةً عن الخيانة، ولا عن الانتقام، ولا حتى عن السرّ الذي يتوارى خلف كل بابٍ مغلقٍ في هذا البيت الكبير. إنها روايةٌ عن اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أن أخطر أعدائه ليس من يكذب عليه، بل عقله هو، حين يُترك وحيداً في العتمة، بلا سؤالٍ يوجّهه، وبلا شكٍّ يهذّبه.

فكم من "يقين" نحمله اليوم، ونحن مقتنعون تماماً أنه الحقيقة، بينما هو، في العمق، ليس سوى دوكسا أخرى، لم نجرؤ يوماً على مساءلتها؟

اقرأ هذه الرواية، لا لتعرف من خان من، بل لتسأل نفسك، في اللحظة التي تُغلق فيها الصفحة الأخيرة: كم من يقيني أنا... لم يُختَبَر بعد؟

فـراس جبـــــران

06-08-2026

Copyright © **2026** Frass Jubrane. All rights reserved.

الفصل الأول

الإشارة

بيروت 2024

لم يكن يوهان يتذكر أنه اختار يوماً شيئاً من هذا كله. لا البيت الذي يقف الآن أمام بوابته الحديدية المطلية بلون النحاس القديم، ولا السيارة التي أطفأ محركها منذ دقيقة وبقي جالساً فيها بلا حراك، ولا حتى الطريقة التي يمسك بها مقود حياته: بهدوء، بثقة من لا يسأل نفسه أبداً "لماذا أفعل هذا؟" لأن الجواب كان قد صيغ له قبل أن يولد، وتربّى عليه كما يتربّى المرء على لغته الأم، دون أن يتذكر اللحظة التي تعلّم فيها أول كلمة.

جلس في السيارة تلك الدقيقة الإضافية كما يفعل كل مساء تقريباً، بلا سبب واضح حتى لنفسه، وكأن جسده يحتاج إلى فاصل قصير بين رجل الأعمال الذي كانه طوال النهار والزوج والأب الذي عليه أن يكونه بمجرد أن يعبر تلك البوابة النحاسية. في تلك الثواني بالذات، كان يسمع أحياناً، من عمق أذنيه لا من خارجهما، صفيراً رتيباً متباعداً، وكأن نبضاً إلكترونياً يعدّ له شيئاً لا يعرفه، فيهزّ رأسه بخفّة ويحسبه طنيناً عابراً من إرهاق يوم طويل، قبل أن ينساه تماماً كما ينسى المرء حلماً لا يستحق أن يروى. كانت هذه الدقيقة، على صغرها، من الطقوس التي لم يتحدث عنها لأحد قط، لا لأنها سرّ، بل لأنها لم تبدُ له يوماً جديرة بالذكر؛ فبعض العادات تصبح، مع الوقت، شفافة تماماً في نظر صاحبها، حاضرة لكنها غير مرئية، كطبقة زجاج نظيف لا يلاحظها أحد إلا حين تُكسر.

كان يوهان ابن عائلة لا تُسأل عن نفسها في هذه المدينة، بل تُستأذَن. لم يكن هذا غروراً بقدر ما كان وصفاً دقيقاً لموقعها: عائلة تملك من العقارات والأسهم والعلاقات ما يكفي لأن يتحوّل اسمها، بمرور الأجيال، من مجرد لقب إلى نوع من الضمانة الاجتماعية، شهادة صمت تُغني عن أي شهادة أخرى. وقد نشأ يوهان، كما ينشأ كل وريث لهذا النوع من الثروة، وهو يمتص من الهواء المحيط به قواعد لم تُكتب في أي كتاب: كيف يصافح من هم أعلى منه بقليل، وكيف يتجاهل بلطف من هم أدنى، وكيف يعرف، بحاسة لا اسم لها، أي مزحة تليق بأي مجلس، وأي صمت هو الأبلغ في أي موقف. لم يكن أحد قد جلس معه ليشرح له هذه القواعد. كانت ببساطة قد أصبحت جزءاً من جسده، من نبرة صوته، من الطريقة التي يميل بها رأسه قليلًا حين يستمع، إلى درجة أنه توقف منذ زمن بعيد عن الشعور بأنها "قواعد" على الإطلاق. كانت، ببساطة، الطبيعة ذاتها. هكذا يسير العالم. هكذا كان يسير دائماً، وهكذا سيبقى.

وكان هذا بالتحديد ما يمنحه تلك الطمأنينة الغريبة التي يحسدها عليها الجميع: طمأنينة من لا يشكّ في أن الأرض التي يقف عليها صلبة، لأنه لم يخطر له يوماً أن يسأل من صبّها.

تذكّر، وهو لا يزال جالساً في السيارة أمام البيت، مشهداً قديماً لم يفكر فيه منذ سنوات: كان في العاشرة من عمره، يجلس إلى جانب والده في سيارة مشابهة، عائدَين من عزاء رجل نافذ توفي فجأة، حين سأل يوهان الصغير، بفضول طفولي بريء، لماذا لم يبكِ أحد بصوت مرتفع كما كان يرى في الأفلام. نظر إليه والده حينها نظرة طويلة، ثم قال جملة لم ينسها يوهان أبداً، وإن كان قد نسي، لعقود، أنه سمعها أصلًا: "الأشخاص الذين نحن منهم لا يبكون بصوت عالٍ. البكاء بصوت عالٍ لأشخاص آخرين. نحن نحمل حزننا بهدوء، لأن الهدوء هو ما يميّزنا." لم

يشرح له والده أكثر من ذلك، ولم يكن يحتاج إلى شرح؛ فالجملة، كما جمل كثيرة أخرى قيلت له في طفولته بلا مقدمات ولا تكرار، استقرت فيه كحقيقة لا تُناقش، إلى درجة أنه، بعد خمسة وثلاثين عاماً تقريباً، لم يكن يتذكرها كدرس تلقّاه، بل كشيء عرفه دائماً، كما يعرف المرء أن الماء بارد أو أن النار تحرق. فالكرامة، كما تعلّم يومها دون أن يفهم بعد ما تعلّمه، ليست غياب الألم، بل غياب من يُسمَح له أن يراه.

في مكتبه، في الطابق الثامن عشر من برج زجاجي يحمل اسم عائلته منحوتاً بحروف ذهبية صغيرة عند المدخل، أنهى يوهان اجتماعاً طويلًا مع مستثمرين أجانب كانوا يزورون المدينة للمرة الأولى. لاحظ، كما يلاحظ دائماً دون أن يفكّر في الأمر، التفاصيل الصغيرة التي تفصل رجلًا عن آخر في هذه الغرف: نوع الساعة، طريقة طي المنديل، السؤال الذي يُطرح في اللحظة المناسبة تماماً لإظهار أن صاحبه "يفهم" دون أن يبدو متلهفاً لإظهار ذلك. كان يعرف، بيقين هادئ لا يحتاج إلى برهان، أنه يتقن هذه اللعبة أكثر من أي شخص في تلك الغرفة، ليس لأنه أذكى، بل لأنه، ببساطة، وُلد وهو يعرف قواعدها، بينما كان على الآخرين أن يتعلموها متأخرين، بجهد ظاهر يفضحهم في كل حركة. وحين ودّع ضيوفه عند الباب، وصافحهم بتلك المصافحة القصيرة التي لا تطول ولا تقصر، شعر، كما يشعر دائماً بعد كل لقاء من هذا النوع، بأن العالم في مكانه الصحيح.

بقي وحده في مكتبه بعض الوقت بعد رحيلهم، ينظر من النافذة الواسعة إلى المدينة الممتدة تحته كخريطة حية، الأبراج والأحياء والحدائق الخاصة كلها متجاورة في المشهد نفسه، لكنها في الواقع تنتمي إلى عوالم لا تتقاطع أبداً إلا في لحظات عابرة كإشارة مرور أو طابور في مطار. فكّر، بلا سبب واضح، في كم الأشياء التي يعرفها بلا أن يتعلمها،

وكم الأشياء التي لا يعرفها أصلًا لأنه لم يحتج يوماً إلى معرفتها: كيف يبدو القلق من فاتورة كهرباء لم تُسدَّد، كيف يبدو الانتظار في طابور لساعتين من أجل ورقة رسمية، كيف يبدو الخوف من أن تُغلق شركة توظفك فتخسر كل شيء دفعة واحدة. لم يكن يزدري هذا الجهل بشيء من الفوقية؛ كان ببساطة غير مدرك لوجوده كجهل أصلًا، تماماً كما لا يفكر السمك في الماء الذي يسبح فيه. ولاحظ، بلا سبب يستحق التوقف عنده، أن دقات الساعة الحائطية خلفه لم تكن تسير بذلك الإيقاع المتساوي الذي اعتاده منها دائماً، بل بنبض متباعد رتيب، يشبه -لو أنصت أحدٌ جيداً- إيقاع جهاز طبي يراقب قلباً لا يراه أحد. ابتسم لنفسه من غرابة الفكرة، وأعاد النظر إلى المدينة.

وفي طريقه إلى المصعد، توقف قليلًا ليتحدث مع أحد الموظفين الجدد، شاباً في أوائل العشرينيات كان قد التحق بالشركة منذ أسابيع قليلة فقط، أتى من مدينة بعيدة، حاملًا شهادة ممتازة وطموحاً واضحاً في عينيه، لكنه كان لا يزال، في كل حركة يقوم بها، يفضح المسافة التي يقطعها كل يوم بين عالمه الأصلي وهذا المكتب. لاحظ يوهان، بلا قصد منه ولا سوء نية، كيف كان الشاب يقف منتصباً أكثر من اللازم أمامه، وكيف كان يختار كلماته بحذر واضح، محاولًا أن يبدو "مناسباً"، وكيف ارتبك للحظة حين سأله يوهان سؤالًا عابراً عن عطلة نهاية الأسبوع، كأن السؤال البسيط كان اختباراً يخشى أن يخفق فيه. ابتسم يوهان له بلطف حقيقي، وشجّعه، وقال له كلمة طيبة قبل أن يدخل المصعد، لكنه لاحظ، وهو يهبط بمفرده بين الطوابق، أنه هو نفسه لم يشعر يوماً بهذا النوع من الحذر في أي مكان دخله في حياته؛ فالغرف التي يدخلها الآخرون بحذر، كان هو يدخلها منذ الطفولة بيقين من لا يحتاج إلى إذن.

غادر المكتب في الساعة السابعة، حين كانت المدينة قد بدأت تشعل أضواءها ببطء، وقاد السيارة في الطريق الذي يعرفه عن ظهر قلب، والذي يقوده دائماً، مهما تغيّرت تفاصيل يومه، إلى المكان ذاته: البيت الكبير المطل على الجهة الهادئة من التلة، حيث تكفي نظرة واحدة من الشرفة لترى المدينة كلها من فوق، دون أن تراك هي.

كان الطريق يمرّ، في جزء منه، عبر أحد الأحياء الشعبية القديمة، حيث تتقارب البنايات وتتشابك أسلاك الكهرباء فوق الشارع كخيوط عنكبوت، وحيث يجلس رجال مسنّون على كراسٍ بلاستيكية أمام محال صغيرة يعرفون أصحابها منذ الطفولة. كان يوهان يمرّ من هناك كل مساء تقريباً، لأنه الطريق الأقصر، ولم يكن يشعر تجاه ذلك المشهد بأيِّ شيءٍ يُذكر؛ لا ازدراءٍ، ولا شفقةٍ، ولا حتى فضولٍ حقيقيٍّ؛ كان فقط مشهداً يمرّ من أمام زجاج سيارته كما تمرّ لوحة في متحف لم يتوقف يوماً ليقرأ اسم فنانها. لم يخطر له قط أن يسأل نفسه لماذا لا يشعر بشيء تجاه هذا العالم الموازي الذي يفصله عنه بضع دقائق بالسيارة فقط؛ فالمسافة الحقيقية بين العالمين لم تكن تُقاس بالكيلومترات، بل بشيء أعمق من ذلك بكثير، شيء يشبه اللهجة التي يفهمها أهل حيّ ولا يفهمها أهل الحيّ المجاور، رغم أنهما يتكلمان اللغة نفسها بالضبط.

أوقف السيارة قرب الدرج الحجري المؤدي إلى المدخل، ونظر للحظة إلى واجهة البيت التي عرفها كل تفصيل فيها: النوافذ الطويلة ذات الإطارات الخشبية الداكنة، الياسمين المتسلق الذي تعتني به سيلين بنفسها كل صباح أحد، الحجر الرملي الذي اختارته أمه بنفسها قبل عشرين عاماً لأنها كرهت "برودة الرخام" على حد تعبيرها. كان هذا البيت، في نظره، أكثر من مجرد مكان يسكنه؛ كان نوعاً من البيان، صامتاً لكن واضحاً لكل من يراه،

عن نوع الحياة التي تُعاش خلف تلك الجدران: منظّمة، مصانة، بعيدة عن الفوضى التي تصيب حيوات أخرى أقل حظاً.

فتح الباب بمفتاحه، ودخل إلى صمت هادئ يعرف أنه لن يدوم طويلًا؛ فسيلين تكون عادة في المطبخ في هذه الساعة، وكريم في غرفته يستمع إلى موسيقى لا يفهمها يوهان لكنه لا يمانع في سماعها من بعيد، لأنها تعني أن ابنه في البيت، بخير، غير بعيد عنه أكثر مما ينبغي. نادى باسمها وهو يعلّق سترته على المشجب الخشبي القديم قرب الباب، قطعة أثاث ورثها عن جدّه، ولم يفكر يوماً في استبدالها رغم أن كل شيء آخر في البيت تغيّر مرتين على الأقل منذ تزوّجا. ورغم أن في البيت من يتولى شؤونه، فنجاة، مدبرة المنزل التي تعمل معهم منذ سنوات، كانت تنهي عملها وتغادر عادة قبل السابعة مساء، ظلّت سيلين تصرّ على أن تُعِدّ عشاء العائلة بيدها كلما استطاعت؛ فهذا، كما قالت له مرّة، الشيء الوحيد في يومها الذي تريد أن تفعله بنفسها لا أن تُشرف عليه فقط.

مرّ في طريقه إلى الدرج قرب غرفة كريم، فسمع صوت الموسيقى المكتوم يتسرب من تحت الباب، إيقاعاً سريعاً لا يعرف اسم صاحبه ولا يحاول أن يعرفه، لكنه توقف لحظة، كما يفعل كثيراً دون أن يخبر أحداً، ليستمع فقط، ليتأكد أن العالم الصغير خلف ذلك الباب لا يزال يدور كما ينبغي: ابن يستمع إلى موسيقاه، غير قلق، غير خائف، لا يحمل من هموم الدنيا أكثر مما يحمله شاب في الثامنة عشرة يفكر في امتحان الغد وفي مباراة كرة القدم ويحلم، ربما، بفتاة لم يخبر أحداً باسمها بعد. ابتسم يوهان لنفسه، وأكمل صعوده.

"في الأعلى!" جاءه صوت سيلين من الطابق العلوي، مبحوحاً قليلًا كأنها كانت تتحدث للتو في الهاتف. صعد الدرج وهو يخلع ربطة عنقه بحركة

واحدة معتادة، يفكّر في لا شيء تقريباً، في ذلك الفراغ الممتع الذي يعقب يوماً طويلًا من العمل، حين لا يطلب الذهن من صاحبه سوى أن يستحمّ، ويغيّر ثيابه، ويجلس إلى مائدة العشاء وكأن شيئاً لم يكن.

دخل غرفة النوم. كانت الستائر نصف مسدلة، والضوء الذهبي لغروب الصيف يتسلل منها بزاوية مائلة رسمت خطاً من الغبار المتطاير فوق السرير. خلع قميصه وألقاه على المقعد قرب النافذة، ثم اقترب من السرير ليأخذ منشفة كانت قد بقيت منسية على طرفه.

وحين انحنى، وصلته الرائحة.

لم تكن رائحة سيلين. كان يعرف رائحة سيلين كما يعرف صوت نَفَسِه هو، عطراً خفيفاً بملمس الياسمين تضعه منذ سنوات ولم تغيّره قط. هذه رائحة أخرى، أثقل، بها شيء من خشب الصندل ممزوجاً بحدة معدنية باردة، رائحة عرفها فوراً، بلا تردد، بلا حاجة إلى أن يفكر ثانية: رائحة عطر صديقه الأقرب ينال.

وقف يوهان تماماً كما هو، منحنياً قليلًا فوق السرير، والمنشفة في يده، لثوانٍ لم يستطع لاحقاً أن يحدد عددها بدقة. كانت هناك تلك اللحظة الغريبة التي يعرفها كل من مرّ بصدمة صغيرة مباغتة: حين يتوقف الزمن عن التدفق بانتظامه المعتاد، ويتحول إلى سلسلة من الصور الثابتة، كل واحدة منها منفصلة عن الأخرى بمسافة أطول مما ينبغي.

ثم، وبسرعة تكاد تضاهي سرعة الصدمة نفسها، بدأ صوت آخر بداخله، صوت هادئ، مألوف، هو صوت العقل الذي تدرّب طوال حياته على ألا يصدق أول ما يُقال له، لأن التسرع، في عالمه، ليس ضعفاً فكرياً فحسب، بل ضعف طبقة بأكملها. الرجال الذين وُلدوا مثله لا يُصدَّقون التفسيرات

الأولى. يبحثون عن الاحتمال الأكثر منطقية قبل أن يسمحوا لأنفسهم بأي احتمال آخر.

ربما مرّ ينال من هنا اليوم. نعم. هذا وارد تماماً؛ فينال يملك مفتاحاً للبيت منذ سنوات، صداقة الرجلين أقدم من زواج يوهان نفسه، وقد اعتاد أن يدخل ويخرج كما لو كان البيت بيته، يمر أحياناً ليأخذ كتاباً استعاره، أو ليترك لكريم هدية صغيرة قبل أن يخرج الشاب من المدرسة. ربما جلس هنا، على طرف السرير، وهو يتحدث في الهاتف، أو وهو ينتظر سيلين لتسليمها شيئاً. تفسيرات معقولة. تفسيرات كثيرة، في الواقع، أكثر مما تحتاجه رائحة عابرة على وسادة.

فكّر أيضاً، وبسرعة أكبر مما كان يود الاعتراف به لنفسه، في أن هذا النوع من الشك بالذات، شكّ رجل في زوجته وصديقه الأقرب معاً، هو من أكثر أنواع الشك التي يخشاها الرجال الذين نشأوا كما نشأ هو، ليس لأنه مؤلم عاطفياً فحسب، بل لأنه، إن ثبت صحيحاً، يعني شيئاً أعمق من مجرد خيانة: يعني أن الرجل نفسه، بكل ما يمثله من سلطة ومكانة ونفوذ، لم يكن كافياً، لم تكف كل تلك الأشياء التي يُفترض أنها تحصّنه لتحفظ له ما يعتبره حقاً بديهياً. في عالمه، كانت الخيانة الزوجية، حين تحدث لرجال آخرين، تُروى دائماً بنبرة خاصة، أقرب إلى الشماتة الهادئة منها إلى التعاطف: حديث خافت في مجالس الرجال عن "فلان الذي لم يعرف كيف يحافظ على بيته"، وكأن الأمر اختبار كفاءة يفشل فيه بعض الرجال بسبب ضعف كامن فيهم هم أنفسهم. لم يكن يوهان قد فكّر قطّ أنه قد يكون يوماً ما موضوعَ ذلك الحديث الخافت في مجلسِ رجالٍ آخرين، ولكنّه الآن يتذوّق، بوخزةٍ باردة، احتمال أن يكون كذلك.

أعاد يوهان ترتيب الغطاء بحركة آلية، ونظر إلى المكان الذي كان قد انحنى فوقه وكأنه يتحقق من أن الرائحة لم تكن سوى وهم عابر، أثر من تعب

يوم طويل. ثم أخذ منشفته، ودخل الحمّام، وأغلق الباب خلفه بلطف أكثر من المعتاد.

تحت الماء الساخن، حاول ألا يفكر. لكن العقل، حين يُطلب منه ألا يفكر في شيء، يفعل العكس تماماً؛ يعيد ذلك الشيء إليه من زاوية جديدة في كل مرة، كأنه يعرضه عليه من كل الجهات ليتأكد أنه رآه جيداً. تذكّر، وهو يدلك شعره بالصابون، أنه لم يسأل نفسه من قبل قط عن رائحة الوسادة. لم يكن هذا سؤالًا يخطر على بال رجل يثق. والثقة، بالنسبة إليه، لم تكن يوماً شعوراً يُختبر أو يُبرهن عليه؛ كانت حالة طبيعية، أشبه بالجاذبية، لا يفكر فيها أحد إلا حين يسقط شيء.

ولثانية عابرة، ظنّ أن رائحة الماء نفسها قد تغيّرت؛ لم تعد تلك الرائحة المعتادة، بل شيئاً أقرب إلى الكحول الطبي اللاسع، رائحة اختفت بالسرعة نفسها التي جاءت بها، فحسبها أثراً من تعبٍ لم يعد يميّز معه بين حواسه.

وفكّر أيضاً، بينما الماء يجري على كتفيه، في أن الشك نفسه شعور لا يليق برجل مثله. الشك، في العالم الذي نشأ فيه، صفة يُنسب أصحابها إلى ضعف في الأصل، إلى نقص في التربية، إلى عدم يقين بالمكانة يدفع صاحبه لأن يراقب كل شيء خوفاً من أن يُسلَب منه. أما هو، السيد يوهان، فلم يكن قد اضطر يوماً لأن يراقب شيئاً ليحافظ عليه؛ فالأشياء التي يملكها، بيته، اسمه، زوجته، ابنه، كانت جزءاً من نظام لا يتزعزع، مضموناً بذاته، لا يحتاج إلى حراسة يومية كما تحتاجها الأشياء الهشة التي يخشى أصحابها أن تُسرق منهم بين ليلة وضحاها. هذا، على الأقل، ما أراد أن يقنع نفسه به وهو يغلق الماء ويلفّ المنشفة حول خصره.

خرج من الحمّام بعد دقائق، ارتدى قميصاً نظيفاً بلون كحلي داكن يفضّله في المساء، ونزل الدرج وهو يستعيد هدوءه بالخطوات نفسها التي استعاد بها كل شيء آخر في حياته: بترتيب، بصمت، بثقة من لا يحتاج لأن يعلن أنه بخير لأنه لم يخطر لأحد أنه قد لا يكون كذلك.

وجد سيلين في المطبخ، تقف أمام الموقد وهي ترتدي مريولًا أبيض فوق فستان منزلي فاتح اللون، وشعرها معقود بإهمال أنيق يشبهها. رفعت رأسها حين سمعت خطواته، وابتسمت تلك الابتسامة التي عرفها منذ عشرين عاماً، تلك التي تبدأ من عينيها قبل أن تصل إلى شفتيها.

"كيف كان يومك؟" سألته وهي تحرّك الطعام في المقلاة.

"طويلًا. لكنه انتهى بما نريد". اقترب منها وقبّل رأسها من الخلف بحركة معتادة، واستنشق، بلا وعي منه تقريباً، رائحة شعرها. الياسمين. كما هي دائماً. تنفّس بارتياح لم يعترف لنفسه بأنه كان بحاجة إليه.

"كريم في غرفته.. قال إنه سيهبط بعد قليل.. هل تريد أن تدعو ينال الليلة؟ اتصل قبل قليل وقال إنه قريب من هنا"، قالتها ببساطة، وهي تتذوق الصلصة من الملعقة الخشبية، دون أن تلتفت إليه، وبلا أيّ تردد في صوتها يُذكر.

توقف يوهان للحظة أقصر من أن تُلاحَظ. "قريب من هنا؟" سألها، بنبرة عادية تماماً، وكأنه يسأل عن الطقس.

راقبها وهي تتحرك بين الموقد والرخام، بحركات واثقة اكتسبتها بعد سنوات طويلة في هذا المطبخ، في هذا البيت، في هذا العالم الذي لم تولد فيه كما وُلد هو. كانت سيلين قد أتت من مدينة أصغر، من عائلة

عادية لا تحمل اسماً يُفتح به أي باب، والتقاها يوهان في زمن كانت فيه لا تزال، كما اعترفت له مازحة بعد سنوات من الزواج، "ترتبك من أي شوكة إضافية على الطاولة". لم يكن ذلك الارتباك قد دام طويلًا؛ فسيلين، بذكاء لم يبالغ يوهان يوماً في تقديره، تعلّمت قواعد هذا العالم بسرعة لافتة، لا لأنها ولدت بها كما وُلد هو، بل لأنها راقبتها، درستها، أتقنتها بجهد واعٍ لم يكن يوهان مضطراً إليه يوماً. وكان هذا، في الحقيقة، أحد الأشياء التي أحبها فيها أكثر من أي شيء آخر: أنها كانت الشخص الوحيد القريب منه الذي يعرف أن هذه القواعد كلها، في النهاية، مجرد لعبة يمكن تعلّمها، بينما هو نفسه لم يكن قد فكر يوماً في أنها لعبة على الإطلاق.

"نعم، عنده اجتماع في المنطقة، قال إنه سيمر ليسلّم عليكم إن كان الوقت يسمح". رفعت كتفيها بلا اكتراث، وأضافت وهي تبتسم: "تعرف ينال، لا يستطيع أن يمرّ قرب البيت دون أن يدخل".

ابتسم يوهان، وقال شيئاً عابراً عن أن ينال "جزء من الأثاث" أكثر مما هو ضيف، وهي جملة قالها مرات كثيرة من قبل بمودة حقيقية، ووجد نفسه، وهو يقولها الآن، يستمع إلى صدى صوته وكأنه يفحص كل كلمة يخرجها فمه، يزنها، يبحث فيها عن أثر لشيء لا يستطيع تسميته بعد.

جلس على أحد كراسي المطبخ العالية، يراقبها وهي تكمل تحضير العشاء بحركاتٍ واثقةٍ اعتاد عليها منذ سنوات. كان المطبخُ مضاءً بضوءٍ دافئ أصفر، وخلف النافذة كانت آخر خيوط الشفق تذوب فوق التلال البعيدة. كل شيء في هذا المشهد كان تماماً كما ينبغي أن يكون: بيتٌ دافئ، امرأةٌ يحبها تحضّر له العشاء، ابنٌ في الطابق العلوي يستمع إلى موسيقاه، وصديقٌ سيمرّ ليسلّم كما يفعل دائماً. لم يكن هناك تفصيلٌ واحدٌ يستحقّ الشكّ، لو نُظر إليه بمفرده.

لكن يوهان لم يستطع، لبضع ثوانٍ، ألا يفكر في وسادة السرير في الطابق العلوي، وفي رائحة لا تخصّه، وفي هذا الاسم الذي عاد وتكرر مرتين في أقل من نصف ساعة دون أن يستدعيه أحد: ينال.

تناول هاتفه من على الطاولة، بلا سبب واضح، وفتح صور اليوم التي التقطتها سيلين ونشرتها في مجموعة العائلة الصغيرة على الهاتف: صورة لكريم وهو يحمل كتبه أمام باب المدرسة صباحاً، وصورة أخرى لسيلين في السوق تحمل أكياس الخضار وتضحك، التقطتها كلير التي رافقتها في نزهة قصيرة بين المشاوير ذلك النهار، وصورة ثالثة، من قبل أسبوع تقريباً، لكريم وينال معاً على متن قارب صغير، الاثنان يبتسمان للكاميرا وخلفهما البحر ممتد حتى الأفق، وعلى معصم ينال تلك الساعة الفضية الأنيقة التي كان يوهان نفسه قد أحضرها له هدية من آخر سفرة له إلى لندن. ابتسم للحظة وهو يتذكر كم فرح ينال بها يومها، ثم أغلق الهاتف ووضعه جانباً، وشعر بشيء من الدفء يعيده، بلا مجهود، إلى هدوئه المعتاد.

هزّ رأسه بخفة، كأنه يطرد ذبابة، وقال لنفسه بحزم داخلي هادئ إنه متعب فحسب، وإن الرجل الذي يبني حياته على الشك في أول علامة يراها هو رجل يستحق أن يخسر كل ما بناه. فالثقة، في نهاية الأمر، ليست شعوراً يُمنح بسهولة، بل موقفاً يُختار، يوماً بعد يوم، ويُدافَع عنه أمام كل التفاصيل الصغيرة التي تحاول أن تهزّه.

نزل كريم بعد قليل، شاب طويل نحيل، بقميص واسع وسمّاعات معلّقة حول رقبته، وابتسامة والدته نفسها على وجهه رغم أن أحداً في العائلة لم يقل ذلك بصوت عالٍ من قبل، وربما لهذا السبب بالتحديد كان يوهان قد توقف منذ سنوات عن ملاحظة الشبه أو غيابه؛ فبعض

الأشياء، حين لا تُسأل، تبقى بديهية، حاضرة بلا حاجة إلى تفحّص، تماماً كأشياء أخرى كثيرة في حياته لم يخطر له يوماً أن يتفحّصها.

"أكاد أموت من الجوع،" قال كريم وهو ينزل درجتين في وقت واحد، ويجلس إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة. "بابا، اليوم قال أستاذ الفيزياء إن هناك مباراة كرة قدم بين الأساتذة والطلاب في نهاية الفصل، ولا بدّ أن توقّع لي ورقة الموافقة".

"أعطني إياها بعد العشاء"، ردّ يوهان، وهو يشعر بذلك الدفء المألوف الذي يغمره كلما تحدث ابنه بهذه الحرية الطفولية التي لا تزال متشبثة به رغم أنه يقترب من الثامنة عشرة. كان دائماً فخوراً بهذا الشاب: بذكائه الهادئ، بلطفه غير المتكلف، بذلك الشيء الذي كان يوهان، دون أن يقولها لأحد، يعتبره امتداداً حقيقياً لنفسه في العالم.

"بابا، صحيح، لم تجبني بعد"، أضاف كريم وهو يمدّ يده نحو سلة الخبز، "أرسل لي ينال رسالة اليوم، أخبرني أنه وجد مكاناً جميلًا على البحر، ويريد أن يأخذني إليه في الأجازة. قلت له إن عليّ أن أسأل بابا أولًا".

"وما نوع هذا المكان؟" سألت سيلين وهي تضع الصحن الأخير على الطاولة وتجلس أخيراً بعد وقوف طويل.

"لست متأكداً تماماً، قال إن هناك مطعماً صغيراً يعرفه منذ زمن طويل، وبعدها سنصطاد قليلًا." أشرق وجه كريم وهو يتحدث، بتلك الحماسة التي لا يستطيع المراهقون إخفاءها حتى لو حاولوا. "قال إنه سيعلّمني كيف أضع الطعم بالطريقة الصحيحة، فقد علّمه جدّه ذلك يوماً".

ابتسم يوهان وأومأ برأسه موافقاً، بينما كان جزء صغير منه، لم يكن قد تعرّف على وجوده بعد بوضوح كافٍ، يسجّل بصمت كل تفصيل من هذه

التفاصيل الصغيرة الدافئة، يخزّنها في مكان ما، دون أن يعرف بعد أنه سيعود إليها يوماً، واحداً تلو الآخر، ليعيد قراءتها بعين مختلفة تماماً.

رنّ جرس الباب بعد دقائق قليلة، ثلاث نقرات معروفة، إيقاع لا يخطئه أحد في هذا البيت.

"هذا ينال"، قالت سيلين وهي تمسح يديها بمنشفة المطبخ، متجهة نحو الباب بخطى سريعة مرحة.

كان صوت الجرس، في تلك اللحظة بالذات، قد أعاد إلى ذهن يوهان، بلا سبب واضح، صورة الرائحة على الوسادة، فقام هو نفسه ليفتح الباب قبل أن تصل إليه سيلين، بخطوات أسرع مما تستدعيه الحاجة، وكأنه أراد أن يكون أول من يرى وجه ينال في تلك اللحظة بالذات، أن يقرأ فيه شيئاً، أي شيء، قبل أن تتاح له فرصة إخفائه. لكن الوجه الذي فتح له الباب لم يكن يحمل شيئاً سوى الفرح المعتاد نفسه، الابتسامة العريضة نفسها التي عرفها منذ عشرين عاماً، ولم يجد يوهان، مهما بحث في تلك الثواني القليلة، أي أثر لما كان يبحث عنه، فشعر، للحظة، بشيء أقرب إلى خيبة الأمل من شعوره بالارتياح، وهو ما أربكه أكثر من أي شيء آخر حدث في ذلك اليوم كله.

دخل ينال كعادته، بلا مقدمات، بابتسامة عريضة وصندوق حلوى صغير في يده "لأنه لم يكن يليق أن يأتي بلا شيء"، على حد قوله. كان رجلًا في مثل عمر يوهان تقريباً، أنيقاً بطريقة أقل رسمية، أكثر مرحاً في حركاته، من ذلك النوع من الرجال الذين يدخلون غرفة فتضيء قليلًا بحضورهم، لا لأنهم يسعون لذلك، بل لأن هذا طبعهم منذ الصغر. عانق يوهان بحرارة الصديق القديم، وربّت على كتف كريم الذي نهض ليصافحه

بحماس واضح، ثم انحنى ليقبّل خد سيلين بتلك القبلة الأخوية المعتادة التي لم يشكّ فيها يوهان يوماً طوال عشرين عاماً من الصداقة.

"لم تعودوا تسألون عني إلا حين أطلّ من الباب"، قال ينال بضحكة عالية وهو يجلس على الكرسي المقابل ليوهان، "لكن لا يهمّ، أنا مستاء قليلًا، غير أنني لن أُظهر لكم ذلك".

ضحك الجميع، وامتدّ العشاء بدفء اعتيادي، أحاديث متقاطعة عن العمل والمدرسة ومباراة كرة القدم القادمة، ونكات قديمة يعرفها الجميع عن نفسه ويكررونها كل مرة وكأنها المرة الأولى. لاحظ يوهان، بطرف عينه، كيف كانت سيلين تضحك بارتياح حقيقي مع كل قصة يرويها ينال، وكيف كان كريم يعلّق على كل جملة يقولها "العم ينال" وكأنها من كتاب مقدس، وكيف كان هو نفسه، لسنوات، يعتبر هذا المشهد بالتحديد، هذه الطاولة، هؤلاء الوجوه، قمة ما بلغه في هذه الحياة.

"بالمناسبة"، قال ينال وهو يصبّ لنفسه كأساً من الماء، "عندي فكرة لكريم. بعد أسبوعين تبدأ الإجازة، وأنا مسجّل في ورشة لتعليم القيادة الدفاعية، فلماذا لا آخذه معي يومين أو ثلاثة ليتعلّم قليلًا قبل أن يحصل على رخصته الرسمية؟ هذا أفضل من أن يتعلّم على عجل لاحقاً".

أشرقت عينا كريم فوراً. "حقاً؟ لكن يجب أن يوافق بابا". نظر إلى يوهان بترقب طفولي رغم أنه على أعتاب الثامنة عشرة.

"بالطبع سيوافق"، قالت سيلين قبل أن يجيب يوهان، وهي تضع يدها على ذراع ينال بامتنان عابر، "سيصبح لدينا سائق محترف في البيت. الله يحفظك يا ينال، أنت دائماً تهتم به كما ينبغي لأبيه أن يهتم".

قالتها بلا أي حساب، بعفوية من لا تزن كلماتها، لكن يوهان سمعها مرتين في رأسه قبل أن يبتسم ويقول: "بالعكس، هذا جيد، يخفف عني عبئاً"، وضحك الجميع، وانتقل الحديث إلى موضوع آخر بالسرعة نفسها التي انتقل بها إليه، وكأن الجملة لم تُقل أصلًا. لكن يوهان، وهو يقطّع اللحم في صحنه بحركة ميكانيكية، وجد نفسه يعيد صياغتها في ذهنه: "كما ينبغي لأبيه أن يهتم". لم تكن الجملة اتهاماً بأي معنى، ولم يقصد بها أحد شيئاً، لكنها استقرت في مكان ما بداخله لم يكن يعرف أنه موجود قبل تلك الليلة.

جاءت شقيقته كلير قرابة نهاية العشاء، دون موعد مسبق كعادتها، حاملة زجاجة نبيذ "لأنها مرّت بمحل قريب وتذكرتهم"، وقبّلت الجميع، وجلست، وبدأت فوراً تمازح يوهان بشأن قميصه الجديد بطريقة أخوية اعتاد عليها منذ الطفولة، تلك المداعبات الصغيرة التي لا تحمل أي معنى سوى الألفة القديمة بين أخ وأخته الكبرى التي رافقته منذ أن كان طفلًا، والتي ظلت، عبر كل منعطفات حياته، الشخص الوحيد الذي وثق به دون أن يسأل نفسه يوماً لماذا.

"أنت وربطات عنقك الرسمية طوال النهار، أما بمجرد أن تصل إلى البيت فلا بدّ أن ترتدي مثل هذا؟" قالت كلير وهي تشير إلى قميصه الكحلي، وضحكت، وضحك الجميع معها، وكان يوهان يضحك أيضاً، بصدق، بلا أي أثر لما شعر به قبل ساعة في غرفة النوم، وكأن تلك اللحظة كانت قد ذابت تماماً في دفء المائدة وصخب الأصوات المألوفة.

تحدثت كلير قليلًا عن مستشفاها، عن مناوبة طويلة أنهكتها، عن ولادة صعبة أشرفت عليها ذلك الصباح "انتهت بخير، والحمد لله"، وعن قرارها أن تأخذ إجازة قصيرة الأسبوع المقبل لأنها "تحتاج أن تلتقط أنفاسها قليلًا". كانت تتحدث بأريحية من لا يخفي شيئاً، بابتسامتها المعتادة التي

لا تفارقها إلا نادراً، وكان يوهان يستمع إليها بالمحبة نفسها التي يستمع بها منذ الطفولة، بلا أي سؤال يخطر بباله، لأن كلير، في نظامه الداخلي لتصنيف العالم، لم تكن يوماً من الأشخاص الذين يُسألون. كانت من نوع آخر تماماً، من ذلك الصنف النادر من الناس الذين لا تُختبر ولاؤهم لأنه، ببساطة، لا يُتصوَّر أن يكون غير موجود.

لم يكن يوهان ليتذكّر، وهو يضحك في تلك الليلة، أن كلير نفسها كانت قد مرّت، قبل سنواتٍ بعيدة، بخسارةٍ لم يتحدث عنها أحدٌ كثيراً في العائلة: خطيبها، طبيبٍ شابٍّ كانت تنوي الزواج منه، توفي في حادث سيرٍ قبل موعد زفافهما بوقتٍ قصير. كان الأمر قد ذُكر يومها، حُزن عليه، ثم طُوي، كما تُطوى كل الأحزان القديمة في العائلات التي تعرف كيف تحافظ على وجهها أمام العالم مهما حدث خلف الأبواب المغلقة. لم يفكر يوهان في ذلك الحادث منذ زمن، ولم يخطر بباله، وهو يرفع كأسه نخب صحبة عائلته، أن لتلك الخسارة القديمة أي علاقة بأي شيء قادم.

انتهى العشاء كما تنتهي كل الأمسيات الهانئة، بلا حدث يستحق أن يُروى، بضحكات متأخرة عند الباب، وبوعد من ينال بأن يصطحب كريم قريباً "في جولة يستحقها"، وبقبلة أخيرة على جبين سيلين قبل أن يغادر كلاهما، كلير وينال، كلٌّ إلى بيته، تاركَين خلفهما ذلك الصمت الدافئ الذي يعقب اجتماعات العائلات السعيدة.

قبل أن يصعد، مرّ يوهان بمكتبه الصغير في الطابق الأرضي، تلك الغرفة التي خصّصها لنفسه منذ سنوات ليقرأ فيها بضع صفحات كل ليلة قبل النوم، عادة ورثها عن والده دون أن يفكر يوماً في التخلي عنها. جلس خلف مكتبه الخشبي الثقيل، وفتح الكتاب الذي كان يقرأه منذ أسبوعين ببطء، سيرة ذاتية لرجل أعمال عصامي أعجبه أسلوبها، لكنه لم يستطع

تلك الليلة أن يركّز في أكثر من سطرين متتاليين. وجد نفسه ينظر، بدلًا من ذلك، إلى الصورة العائلية المؤطرة على الرف خلفه: صورة التقطت قبل خمس سنوات على شاطئ بعيد، الجميع فيها يضحكون، سيلين وكريم بينهما، وكلير إلى جانبهم، وينال في الطرف، ذراعه على كتف كريم الصغير آنذاك. أطال النظر إليها أكثر مما تستحق صورة يمرّ بها كل يوم تقريباً دون أن يراها فعلًا، ثم أغلق الكتاب، وأطفأ مصباح المكتب، وصعد الدرج ببطء أكبر من المعتاد، وكأن جزءاً منه كان يعرف أن شيئاً في تلك الصورة، لو أُعيد النظر إليه يوماً بعين مختلفة، لن يبدو بريئاً كما بدا الليلة.

صعد يوهان إلى غرفته في تلك الليلة، وأطفأ النور، واستلقى على وسادته التي كان لا يزال يفوح منها، خفيفاً لكنه حاضرٌ، أثرُ ذلك العطر الذي لا يخصّه، إلى جوار سيلين التي غفت بسرعةٍ كعادتها، منهكةً من يومٍ طويل. حدّق في السقف في العتمة، وفكّر، للحظةٍ أخيرة قبل أن يستسلم هو أيضاً للنوم، في أنَّ حياته، بكل ما فيها، كانت تماماً كما ينبغي أن تكون: بيتاً، وامرأةً، وابناً، وصديقاً كأخ، وأختاً لا بديل عنها. عالمٌ مكتمل، مغلقٌ على نفسه بإحكام، لا تدخله رائحةٌ غريبةٌ إلا لتخرج منه بلا أثرٍ، كما تخرج كل الأشياء التي لا يُسأل عنها.

لم يكن يعرف، وهو يغمض عينيه تلك الليلة، أن هذا اليقين نفسه، ذلك الشعور الهادئ العميق بأن العالم في مكانه الصحيح لأنه لم يخطر له يوماً أن يكون غير ذلك، هو بالتحديد ما سيجعله، حين تبدأ الأسئلة الحقيقية بالوصول، أكثر الرجال عمى عن رؤيتها قادمة.

في الأسفل، كان صمت البيت قد استقر تماماً، ذلك الصمت الخاص الذي لا تعرفه إلا البيوت الكبيرة، حيث تبتلع الغرف الواسعة كل صوت صغير قبل أن يصل إلى أي أحد. وحده صوت ساعة الحائط القديمة في الصالة، تلك التي ورثها يوهان أيضاً عن جدّه كما ورث المشجب الخشبي، كان

يواصل عدّه الهادئ للثواني، غير مبالٍ بما يدور في الأعلى، وغير مدرك أنه، هو أيضاً، كان يعدّ الثواني الأخيرة لشيء لم يكن أحد في ذلك البيت، ولا حتى الساعة نفسها، قد بدأ يشك بقدومه.

فالثقة التي وُلد بها يوهان لم تكن ثقة اكتسبها بجهد أو اختبرها في محنة، بل ثقة وُهبت له مع الاسم والبيت والحساب المصرفي، جزءاً من ميراث لا يُذكر في أي وصية، لكنه أثقل من كل ما فيها. وككل شيء يُمنح دون أن يُطلب، لم يكن يوهان قد تعلّم يوماً كيف يشكّ فيه بجدية، لأن الشك يحتاج إلى تمرين، إلى عضلة تُبنى بالممارسة، وهو لم يُضطر يوماً لتحريكها. وحين تبدأ تلك العضلة أخيراً بالتحرك، متأخرة، خرقاء، غير معتادة على وزنها، فإنها لا تتحرك بهدوء كما تتحرك عند من تدرّب عليها طويلًا، بل تتحرك بعنف من يكتشف فجأة أن الأرض التي وثق بصلابتها طوال حياته لم تكن سوى سطح رقيق فوق هاوية لم ينظر إليها من قبل قط، لأنه لم يخطر له يوماً أن ينظر إلى الأسفل.

نام تلك الليلة نوماً هادئاً، بلا أحلام يتذكرها، وكأن جسده نفسه كان لا يزال يصدّق أن كل شيء على ما يرام، بينما كان جزء صغير جداً منه، شيء لا اسم له بعد، قد بدأ للتو، وبلا ضجيج، يفتح عينيه في العتمة.

الفصل الثاني

الساعة

مرّت الأسابيع القليلة التي تلت تلك الليلة بهدوء لم يتوقعه يوهان من نفسه. لم يعثر على أي أثر آخر يستحق الانتباه، لا رائحة غريبة، ولا مكالمة مقتضبة أنهيت بسرعة حين دخل الغرفة، ولا حتى نظرة عابرة بدت له مريبة أكثر من اللازم؛ وكأن الحياة، بعد أن أثارت شكه لحظة واحدة، عادت لتطمئنه بإصرار، يوماً بعد يوم، بأنه كان مخطئاً، أو ربما مبالغاً، أو ربما فقط متعباً من ضغط العمل كما أخبر نفسه أكثر من مرة. بدأ يوهان، ببطء، يسمح لذلك القلق بأن يتراجع إلى الخلفية، لا لأنه اقتنع بزواله، بل لأن العقل، حين لا يجد وقوداً جديداً يبقيه مشتعلًا، يخفت من تلقاء نفسه، حتى لو ظل، في مكان ما تحت الرماد، جمراً لم ينطفئ تماماً. وهكذا وصل موعد عيد ميلاده هذا العام، وهو لا يزال يحمل في صدره ذلك الجمر الخافت، دون أن يعرف أن الليلة نفسها ستُشعله من جديد بقوة لم يكن مستعداً لها.

كانت أعياد الميلاد في بيت يوهان مناسبات لا تُترك للصدفة. منذ الصباح الباكر، كان البيت قد بدأ يتحول، بيد سيلين الحاذقة وبإشراف نجاة الصامت، إلى نسخة أكثر إشراقاً من نفسه: الزهور البيضاء التي طلبتها سيلين من المحل نفسه الذي تطلب منه دائماً، لأنها، كما قالت مرة، "تعرف كيف تتذكر المناسبات"، والطاولات التي رُتبت في الحديقة الخلفية بمسافات مدروسة بين كل مقعد وآخر، والإضاءة التي اختارها يوهان بنفسه قبل أسابيع من كتالوج أرسله له مصمم يثق به، لا لأنه يهتم فعلًا بالإضاءة، بل لأنه يعرف أن التفاصيل التي لا يلاحظها أحد بوعي هي بالضبط ما يجعل ضيوفاً معينين يشعرون، دون أن يستطيعوا تفسير السبب، بأنهم في المكان الصحيح.

فقائمة المدعوين نفسها كانت، وإن لم يفكر فيها أحد بهذه الطريقة، خريطة دقيقة لعالم يوهان بأكمله: شركاء العمل الذين لا بد من دعوتهم، أصدقاء

العائلة الذين تربطهم بيوهان علاقات تمتد لعقود، جيران قليلون من أولئك الذين "يليق" التقرّب منهم، وقلة قليلة جداً ممن يدخلون هذا البيت من دون أن يُسألوا عن سبب حضورهم، لأن حضورهم بديهي بذاته: كلير، وينال، وبعض أفراد العائلة الأقربين. لم يكن أحد قد وضع هذه القائمة بوعي طبقي صريح؛ فمثل هذه القوائم لا تُكتب، بل تتشكل من تلقاء نفسها، بحاسة صامتة تعرف من يُدعى ومن لا يُدعى دون أن تحتاج لأن تشرح نفسها لأحد، تماماً كما تعرف اليد كيف تتجنب النار دون أن تستشير العقل أولًا.

استقبل يوهان أول الضيوف عند الخامسة، بقميص فاتح اللون اختارته سيلين له بنفسها ذلك الصباح، وبتلك الابتسامة التي يتقنها منذ الطفولة، الابتسامة التي تكفي بذاتها لتجعل كل ضيف يشعر أنه هو، بالتحديد، من كان يوهان ينتظر وصوله. كان كريم يتنقل بين الضيوف بحيوية شاب يحب أن تكون كل الأنظار على والده في مثل هذه المناسبات أكثر مما يحبها عليه هو، يقدّم المشروبات، يضحك مع أصدقاء العائلة الأكبر سناً بأدب متعلَّم لا تكلّف فيه، وكان يوهان يتابعه بعينين لا تفارقانه، وكلما اقترب منه ليهمس له بكلمة إرشاد أو ليصحح له طريقة تقديم كأس، وضع يده على كتفه للحظة قبل أن يبتعد، حركة صغيرة متكررة لم يشعر بها أحد سوى الاثنين.

كان الطقس ذلك المساء لطيفاً بشكل استثنائي، كأن الصيف نفسه قد قرر أن يمنح يوهان هدية إضافية: سماء صافية بدأت تتلون تدريجياً بدرجات البرتقالي والوردي مع اقتراب الغروب، ونسيم خفيف يحرك أطراف المفارش البيضاء على الطاولات دون أن يزعجها، وضوء المصابيح الصغيرة المعلقة بين الأشجار الذي بدأ يتوهج تدريجياً كلما خفت ضوء النهار، حتى بدت الحديقة كلها، مع اقتراب السابعة مساءً، وكأنها مسرح مُعَدّ بعناية فائقة لمشهد لا يريد أحد أن ينساه. وفي لحظة عابرة، خُيّل إليه أن تلك الأضواء الدافئة قد ارتجفت لوهلة بوميضٍ أبيضَ بارد، أشبه بطنين أنابيب فلورسنت في ممرٍّ لا صلة له بهذه الأمسية، قبل أن تعود الألوان الذهبية إلى مكانها كأن شيئاً لم يحدث. وقفت سيلين عند المدخل ترحب بالضيوف واحداً واحداً، بفستان أحمر داكن ضيق من الأعلى، له فتحة طويلة عند الظهر تكشف عن جلدها الأبيض كلما تحركت،

وبروش صغير على شكل ثعبان ملتفّ يلمع عند كتفها الأيسر، اختارته بنفسها قبل أسبوعين من متجر تثق بذوقه، وشعرها منسدل هذه المرة بخلاف عادتها، وكانت، في تلك اللحظة بالذات، تجسيداً كاملًا لكل ما أراده يوهان يوماً من حياته: امرأة جميلة، واثقة، تقف إلى جانبه في بيت بناه بيديه، مستعدة لاستقبال العالم كله في المساء نفسه الذي وُلد فيه.

وكانت الهدايا نفسها، حين بدأت تتكدس على الطاولة المخصصة لها قرب المدخل، تروي قصة موازية لم يقصد أحد أن يرويها: فبعضها كان ملفوفاً بورق باهظ من متاجر معروفة، يحمل بطاقات صغيرة كُتبت بخط أنيق مدروس، وكأن اختيار الهدية نفسه كان اختباراً غير معلن في الذوق، لا في الكرم؛ إذ لم يكن المهم أن تكون الهدية غالية بالضرورة، بل أن تُظهر أن مانحها يعرف بالضبط ما يليق بمن يُهدى إليه، تلك المعرفة الدقيقة التي لا تُكتسب بالمال وحده، بل بسنوات من مراقبة العالم نفسه الذي يتحرك فيه يوهان، حتى تصبح غريزة لا تحتاج إلى تفكير. ولاحظ يوهان، وهو يستقبل الهدايا واحدة تلو الأخرى بامتنان صادق، أن بعض الضيوف كانوا يقدّمون هداياهم بثقة هادئة، وآخرين، أقل عدداً، بحماسة زائدة قليلًا، وكأنهم يريدون أن يتأكدوا أن اختيارهم كان مناسباً، وهي حماسة لم يكن يوهان يزدريها، لكنه كان يلاحظها، كما يلاحظ المرء أي شيء لا يشبه إيقاعه المعتاد.

أما سيلين، فكانت تتنقل بين ضيوفها بذلك الإتقان الذي لم يعد أحدٌ، بعد كل هذه السنوات، يتذكر أنه كان يوماً مهارةً مكتسبة لا طبعاً فطرياً. كانت تعرف بالضبط متى تترك حديثاً لتنتقل إلى آخر، ومتى تضحك بصوتٍ مرتفع، ومتى تكفي ابتسامةٌ هادئة، ومتى تُدخل نفسها بين مجموعةٍ من ضيوف العمل لتنقذ يوهان من سؤالٍ محرجٍ بلباقةٍ لا يلاحظها إلا من يعرف كم كلّفها تعلّم هذا الفن.

كانت مضيفةً كاملة بالمعنى الذي يفهمه هذا العالم تحديداً: ليست تلك التي تُطعم ضيوفها فحسب، بل التي تجعل كلَّ واحدٍ منهم يشعر بأنه قد رُؤِي؛ وهي مهارةٌ نادرة لا تقل أهميةً في هذا الوسط عن أي مهارةٍ مهنيةٍ أخرى، وإن كان

لا أحد يذكرها أبداً في سيرةٍ ذاتية. وكان يوهان، وهو يراقبها من بعيد تتنقل بتلك الرشاقة بين الضيوف، يشعر أحياناً أنه يراقب فناً حقيقياً، لا مجرد كرم ضيافة؛ فناً لا تُمنح شهاداته، ولا يُعترف به في أي مكانٍ رسمي، لكنه، في عالمه هو بالذات، يزن أحياناً أكثر من أي شهادةٍ أخرى.

رفع يوهان كأسه في منتصف الأمسية، وطلب من الجميع الإصغاء لدقيقة، وألقى كلمات قصيرة شكر فيها ضيوفه على حضورهم، وزوجته على "صبرها معه طوال هذا العام"، وابنه لأنه "السبب الحقيقي وراء كل شيء يستحق الاحتفال به"، ولم ينسَ أن يذكر، كما يفعل كل عام، أخته كلير وصديقه ينال، "العائلة التي اخترتها بقدر ما وُلدت في العائلة التي وُلدت فيها"، فارتفعت الكؤوس وتعالت التصفيقات، وشعر يوهان، للحظة، بأن هذه الجملة بالذات، التي كررها بلا تفكير في كل عيد ميلاد له منذ سنوات، كانت أصدق ما قاله تلك الليلة كلها.

مرّ في طريقه بين الضيوف بأحد شركائه الأقدم في العمل، رجل ستيني يرتدي بذلة رمادية فاتحة، توقف ليصافحه ويهنئه، ثم قال له، بنبرة نصف جادة نصف ممازحة: "والدك كان سيفخر بك اليوم، لو رأى كل هذا." ابتسم يوهان وشكره، لكنه فكّر، وهو يواصل طريقه بين ضيوفه، في مدى غرابة أن يظل اسم أبيه، بعد كل هذه السنوات من رحيله، حاضراً في كل مناسبة كهذه، وكأن الرجل الذي بنى كل هذا لم يمت فعلًا، بل انتقل فقط إلى مكان آخر يراقب منه، ولا يزال قادراً، حتى من هناك، على أن يمنح أو يمنع رضاه. لم يكن يوهان قد فكر من قبل في أن هذا الحضور الدائم لأبيه، في كل ثناء يسمعه وفي كل صفقة ينجحها، كان في الحقيقة نوعاً من الميراث لا يقل ثقلًا عن الميراث المالي: عبء أن يظل، مهما فعل، ابناً يُقاس بمقياس رجل لم يعد موجوداً ليقول رأيه بنفسه.

جاءت شقيقته كلير من أوائل الحاضرين كعادتها، بفستان أبيض بسيط لا تكلّف فيه، اختارته لأنها تعرف أن البساطة تريحها أكثر من أي زينة زائدة، تحمل هدية أنيقة ملفوفة بورق فضي، وقبّلت يوهان وهنّأته بعامه الجديد بحرارة لم

تفارق صوتها منذ عشرين عاماً، ثم انسحبت بهدوء إلى طرف الحديقة، قريبة من الجميع لكن بمسافة صغيرة لا يخترقها أحد، تبتسم تلك الابتسامة الهادئة التي تعرفها العائلة كلها عنها، وتومئ برأسها أكثر مما تتكلم، وتكتفي بالاستماع حين يرتفع صوت النقاش من حولها. لم تكن كلير امرأة تحب مركز الأضواء يوماً، وهذا بالضبط ما كانت عليه دائماً في نظر يوهان: الوجه الهادئ الذي لا يُسأل، لأنه لا يُتصوَّر أن يُسأل.

وجدها يوهان، في لحظة عابرة بين استقبال ضيف وآخر، تقف إلى جانب سيلين قرب طاولة المشروبات، سيلين تتحدث بحيوية وتضحك بصوت عالٍ على شيء ما، وكلير تستمع إليها بابتسامة هادئة، رأسها مائل قليلًا، يداها متشابكتان أمامها بأدب من لا تريد أن تشغل حيزاً أكبر مما ينبغي. اقترب منهما، فأمسكت كلير بذراعه برفق ومازحته بصوت خفيض عن خطاب شكر كان قد أعدّه لضيوفه، قائلة إنه "يبالغ دائماً في الرسميات حتى في أعياد ميلاده"، فضحك، وضحكت سيلين معها بصوت أعلى بكثير من ضحكة كلير الخافتة، وبقي الثلاثة لدقائق قليلة في ذلك الركن الهادئ من الحديقة، يتبادلون حديثاً عائلياً خفيفاً عن خطط الصيف، قبل أن يناديه أحد الضيوف فيعتذر ويبتعد، تاركاً الأختين، كما كان يسميهما مازحاً أحياناً، لأن كلير كانت أقرب إلى سيلين من أي صديقة أخرى، تتابعان حديثهما وحدهما وسط صخب الحفل.

ولم يتأخر ينال في الوصول أيضاً، بقميصِ كتانٍ أبيضَ فتح زِرَّيْهِ العلويَّيْن بإهمالٍ مقصود، وسترةٍ جلديةٍ بنيةٍ فاتحة تناسب قامته الطويلة، وشعرٍ مصفّفٍ بعنايةٍ توحي بأنه لم يُصفَّف على الإطلاق؛ فبدا، وهو يعبر الحديقة بخطواتٍ واسعةٍ واثقة، أقرب إلى ضيفٍ خرج للتو من مجلة أزياء منه إلى صديقِ عائلةٍ اعتيادي، حتى إن إحدى صديقات سيلين توقفت عن الحديث للحظة لتتابعه بعينيها وهو يمر.

كان يحمل هديتين: الأولى أنيقةٌ صغيرة ليوهان، لفّها بنفسه كما اعترف لاحقاً وهو يضحك من نتيجة "تغليفِ يدِ رجلٍ لم يتدرب على هذا الفن يوماً"، والأخرى ضخمةُ الحجم غريبةُ الشكل لكريم، أثارت فضول الصبي فوراً. قال ينال ضاحكاً: "لن تعرف ما هي حتى نهاية الليل"، ثم عانق يوهان بتلك العناقات الطويلة

القوية التي اعتاد عليها الرجلان منذ أيام الجامعة؛ عناقٌ لا يزال، بعد كل هذه السنوات، يحمل الدفءَ ذاتَه الذي رافقه في أول مرة.

كان ينال، في الرابعة والأربعين من عمره تقريباً، لا يزال يحمل شيئاً من مرح الشباب في حركاته؛ ذلك النوع من الرجال الذين لا يبدون أبداً في مكانهم المناسب تماماً في حفلٍ رسمي، بل يبدون دائماً وكأنهم على وشك أن يقترحوا فكرةً مجنونة تُخرج الجميع من جديتهم.

مع نهاية الأمسية، جلست إحدى قريبات سيلين، امرأةٌ في الستين من عمرها، تحبّ طرح أسئلةٍ لا يجرؤ أحدٌ على مسّها، إلى جوار ينال، ورشفت من كأسها ثم سألته بابتسامةٍ ماكرة: "متى ستتزوج مرةً أخرى يا ينال؟ لا يجوز لرجلٍ بمثل وسامتك أن يبقى وحيداً كل هذه السنوات". ضحك ينال بصوتٍ عالٍ؛ ضحكةً اعتاد اللجوء إليها كلما اقترب أحدٌ من هذا الموضوع أكثر مما يرتاح له، أفلتها من صدره بسرعةٍ أكبر من المعتاد وأمسك بكأسه بقوةٍ زائدة عن اللزوم، ثم قال: "من تزوّج الحرية مرة، لا تعود تعجبه امرأةٌ أخرى بسهولة". وحاول تغيير الحديث بلطف، لكن المرأة، بإصرار من لا يقرأ الإشارات الاجتماعية جيداً، أضافت: "سمعت أنك تزوجت مرة، أليس كذلك؟ ماذا حدث؟"، ساد صمتٌ قصير، من ذلك النوع الذي يشعر فيه الجميع حول الطاولة بالحرج نيابةً عنه. امتدت يد ينال إلى ياقة قميصه فحرّكتها قليلًا وكأنها ضاقت عليه فجأة، قبل أن يجيب بابتسامةٍ أهدأ هذه المرة: "قصةٌ قديمة يا سيدتي... لا تستحق أن تُروى في حفل"،

حاولت إحدى الجالسات القريبات، صديقةٌ لسيلين، أن تنقذ الموقف، فسألت ينال عن مشروعه الجديد، فامتنّ لها بنظرةٍ سريعة وانتقل الحديث فوراً إلى موضوعٍ أكثر أماناً، بينما بقيت المرأة المسنة تهزّ رأسها بأسفٍ مصطنع، غير مدركةٍ أنها فتحت، دون أن تقصد، باباً ظلّ يوهان يفكر فيه لبقية الأمسية.

لكن يوهان، الذي كان يقف على مسافةٍ قريبة، لم يكن بحاجةٍ إلى أن يُروى له شيء؛ فقد عاش تلك السنوات مع صديقه خطوةً بخطوة. كان الصوتَ الذي

أجابه في منتصف الليل حين اتصل به ينال منهاراً بعد أن غادرت زوجته البيت للمرة الأخيرة، وكان الكتفَ الذي استند إليه ينال في تلك الفترة، حين كان يزوره كل مساءٍ تقريباً بوجهٍ شاحب وعينين لا تنامان.

كان ينال قد تزوج في مطلع الثلاثينيات من عمره، من امرأةٍ أحبها، كما وصفها لاحقاً، "أكثر مما كان يظن أنه قادرٌ على أن يحب أحداً". دام الزواج بضع سنواتٍ هادئة، إلى أن حدثت، على حد تعبير ينال نفسه، "نزوةٌ" لا يزال يرفض أن يسمّيها بغير هذا الاسم: علاقة عابرة قصيرة مع امرأةٍ لم يذكر أحدٌ اسمها قط، ولا حتى ينال نفسه تذكّر أنه نطق به يوماً.

اكتشفت زوجته الأمر، لا بمواجهةٍ دراميةٍ كما تُروى مثل هذه القصص في الأفلام، بل بهدوءٍ باردٍ أخافه أكثر من أي صراخٍ كان يتوقعه؛ طلبت الطلاق، وحصلت عليه بسرعةٍ لم تترك له فرصةً حقيقيةً للاعتذار أو التراجع، ثم اختفت من حياته تماماً، بلا أثرٍ ولا رسالةٍ أخيرة، حتى إن ينال نفسه لم يعرف أين استقرت أو ماذا فعلت بحياتها بعد ذلك.

تذكّر يوهان تلك الليالي جيداً: كيف كان ينال يجلس على أريكته، مرفقاه على ركبتيه ورأسه بين يديه، صوته يخرج مبحوحاً متقطعاً وهو يكرر جملة واحدة لم ينسها يوهان منذ ذلك الحين: "أفهم الآن أن هناك أخطاء لا تُصحَّح، فقط يُتعايَش معها". ولم يشكّ يوهان يوماً، منذ تلك الليالي وحتى هذه اللحظة، في صدق ما رآه بأمّ عينيه، ولا في ندم صاحبه؛ فينال، في نظامه الداخلي لتصنيف الناس، كان قد انتقل من "صديق" إلى "رجل عرف طريق الخطأ فتعلّم منه"، وهي مرتبة أعلى، في الحقيقة، من مرتبة من لم يُختبر قط. لم يخطر ليوهان يوماً أن يسأل نفسه: ماذا لو لم يكن ما رآه سوى نصف الحكاية؟ ماذا لو كانت الدموع نفسها، والندم نفسه، جزءاً من أداء يتقنه صاحبه أكثر مما يتقن أي شيء آخر؟ فبعض الانهيارات، حين تُعرض بما يكفي من الصدق الظاهر، تكتسب مصداقية لا علاقة لها بحقيقتها، بل بمدى إتقان صاحبها لفن الظهور بمظهر من يستحق أن يُصدَّق.

ولعل هذا بالتحديد ما جعل يوهان، على مدار عشرين عاماً من الصداقة، يثق بينال أكثر مما يثق بأي رجل آخر خارج عائلته: لم يكن ذلك لأن ينال أثبت شيئاً بالضرورة، بل لأن يوهان قرر، منذ تلك الليلة، أن يمنحه ثقة لم تعد بحاجة إلى إثبات متجدد، ثقة تحولت، كما تتحول كل الثقة القديمة بما يكفي، إلى شيء أقرب إلى الحقيقة منها إلى الرأي. وهذا، في نهاية الأمر، هو ما تفعله الثقة الحقيقية بصاحبها: لا تجعله يرى أقل، بل تجعله يتوقف عن النظر من الأساس.

مرّت الساعة الأولى من الحفل بسلاسة معتادة، ضحكات، نخب، أطفال أصدقاء العائلة يركضون بين الطاولات، وموسيقى خفيفة تتسلل من مكبرات الصوت المخبأة بين شجيرات الحديقة. وقفت سيلين إلى جانب يوهان في لحظة هدوء نادرة بين استقبال الضيوف، وهمست له وهي تبتسم: "سعيد بعيد ميلادك يا حياتي؟" فأجابها بصدق، وهو يضع يده على خصرها: "أكثر مما تتخيلين." ولم يكن يكذب؛ فحتى تلك اللحظة بالذات، كانت الحياة، بكل تفاصيلها الصغيرة، لا تزال تبدو له تماماً كما ينبغي أن تكون.

مرّ كريم بهما، يحمل صحناً من الحلوى لأحد الضيوف المسنّين، وتوقف للحظة ليعانق والده من الخلف بلا مناسبة، كما كان يفعل أحياناً منذ صغره حين تغمره سعادة لا يعرف كيف يعبّر عنها بغير ذلك. "أفضل أب في العالم،" قالها بضحكة خجولة قليلًا لأن بعض أصدقاء المدرسة كانوا يشاهدونه، ثم ابتعد مسرعاً قبل أن يُحرَج أكثر. وقف يوهان صامتاً للحظة، يداه في جيبيه، وابتسامة بطيئة تتسلل إلى وجهه وهو يراقب ظهر ابنه يبتعد بين الضيوف، قبل أن يمسح بكفه على فمه وكأنه يخفي شيئاً أكبر من ابتسامة.

وفتح كريم هدية ينال أمام الجميع بعد قليل؛ ذلك الصندوق الضخم غريب الشكل الذي أثار فضوله منذ وصوله، فإذا هو مجموعةٌ كاملة من عُدّة الصيد، بقصباتٍ مصقولة وصندوق أدواتٍ جلديٍّ محفور عليه الحرف الأول من اسمه، هديةٌ واضحٌ أنها اختيرت بعنايةٍ لا تقل عن عناية أي هديةٍ أخرى تلقاها منذ فترة، بل ربما أكثر؛ لأنها كانت تحمل وعداً بوقتٍ مشترك أكثر مما تحمل قيمةً مادية.

صاح كريم بفرحٍ حقيقي، وعانق ينال للمرة الثانية في تلك الليلة، وقال له بصوتٍ عالٍ يكفي ليسمعه نصف الحديقة: "هذه هديةٌ من أقرب الناس إلى قلبي!" فضحك الجميع، وضحكت سيلين، وضحك يوهان أيضاً، وإن كانت ضحكته، لو دُقّق فيها جيداً، أقلَّ عفويةً من ضحكات من حوله.

في مكان ما بين تقديم الكعكة وتوزيع الهدايا، احتاج يوهان أن يصعد إلى غرفته ليُحضر زجاجة نبيذ نادرة كان قد خبأها في خزانته منذ أشهر تحديداً لهذه المناسبة، هدية أراد أن يشاركها مع أقرب أصدقائه في نهاية الأمسية. صعد الدرج بخطى سريعة، وسط ضجيج الحفل الذي كان لا يزال يصله خافتاً من الأسفل، ودخل غرفة النوم المظلمة الهادئة، تلك الغرفة التي لا يدخلها أحد سواه وسوى سيلين، حتى نجاة نفسها لا تدخلها إلا في أوقات محددة لتنظيفها، فأضاء المصباح الجانبي، ووجد كل شيء في مكانه المعتاد تماماً: السرير مرتّباً كما تركته سيلين ذلك الصباح، الستائر نصف مسدلة، رائحة العطر الخفيفة التي تترك سيلين أثرها في كل ركن من الغرفة لا تزال معلقة في الهواء كعادتها، وصمت البيت العلوي يبتلع صخب الحفل القادم من الأسفل حتى يكاد يختفي.

فتح خزانة الملابس، وتناول الزجاجة من مكانها، ثم، وهو يستدير ليغادر، وقعت عيناه على شيء لامع بين طيات الشرشف المتكوّم قليلًا على طرف السرير، حيث لا سبب واضحاً يجعل أي طيّة تتكوّن هناك أصلًا. اقترب، بفضول عابر لا أكثر، ورفع طرف الشرشف.

كانت ساعة يد.

لم يحتج يوهان إلى أكثر من نظرة واحدة ليعرفها: ساعة فضية أنيقة، بسوار جلدي بني داكن، هي نفسها، بلا أي مجال للشك، الساعة التي أحضرها هو بنفسه لينال هدية من آخر سفرة له إلى لندن.

وقف يوهان في مكانه، والزجاجة لا تزال في يده اليسرى، والساعة في يده اليمنى، لثوانٍ طويلة لم يحرّك فيها ساكناً. لم يكن هناك، هذه المرة، أي مجال

لتفسير بريء يشبه تفسيرات الرائحة قبل أسابيع؛ فالرائحة يمكن أن تُنسب لزيارة عابرة، لكن ساعة يد رجل، وهي في السرير نفسه، في الطرف الذي تنام عليه سيلين، لم تكن من ذلك النوع من الأشياء التي تفسّر نفسها ببساطة.

أغلق الباب خلفه بلا صوت، وكأن جزءاً منه، حتى في تلك اللحظة الأولى من الصدمة، كان لا يزال يحسب لضجيج قد يصل إلى الأسفل، لا يزال يراقب نفسه من الخارج كما يراقب مسرحية يؤدي فيها دوراً لا يستطيع التوقف عن أدائه مهما حدث خلف الكواليس. جلس على حافة السرير، بلا وعي منه تقريباً، يقلّب الساعة بين أصابعه، يتأمل الخدش الصغير القديم على إطارها الذي يتذكره جيداً منذ اليوم الذي اختارها فيه بنفسه، يتأمل الوقت المتوقف عليها، لم تكن تعمل، أو ربما توقفت بطاريتها منذ وقت، وكأن الزمن نفسه، داخل تلك الآلة الصغيرة، كان قد قرر أن يتجمد عند لحظة لا يريد أحد أن يعرف متى بالضبط حدثت. وفي تلك اللحظة بالذات، شعر بوخزةٍ خفيفةٍ غريبةٍ في ساعده الأيسر، أشبه بشكّة إبرةٍ رفيعةٍ تدخل الجلد ثم تُسحبُ فوراً. حكّ المكان بأصابعه مستغرباً، لكنه لم يجد أثراً لشيء، فنسي الأمر بالسرعة نفسها التي نسي بها أشياء كثيرة أخرى في تلك الليلة.

لم تكن تلك الدقائق الأولى بعد الاكتشاف شبيهة بأي شيء اختبره من قبل؛ فقد كان يتوقع، لو تخيّل يوماً لحظة كهذه، أن يشعر بغضب فوري، بانفجار داخلي يدفعه للنزول والصراخ في وجه الجميع. لكن ما شعر به فعلًا كان أقرب إلى برودة غريبة، هدوءاً مرَضياً يشبه ذلك الذي يعقب حادثاً كبيراً حين يقف الجسد صامتاً بينما يحاول العقل أن يستوعب ما جرى للتو. تذكّر، في تلك اللحظة بالذات، اليوم الذي اشترى فيه هذه الساعة، في متجر صغير أنيق قرب فندقه في لندن، كيف وقف طويلًا يقارن بين نموذجين متشابهين قبل أن يختار هذا بالذات لأن سواره ذكّره بمعطف كان ينال يرتديه كثيراً في أول شبابهما، وكيف فرح صديقه بها حين قدّمها له، فرحاً بسيطاً صادقاً جعل يوهان يشعر، لأيام بعدها، بأنه اختار الهدية الصحيحة تماماً. أن يجد الآن الشيء نفسه، بكل ما يحمله من ذكرى دافئة، ملقى بلا مبالاة بين طيات شرشف سريره هو، بدا له أقسى

بكثير من مجرد اكتشاف خيانة مفترضة؛ كان أشبه بأن يرى شيئاً أحبه يُستخدم ضده، بلا أن يقصد صانعه ذلك يوماً.

فكّر، للحظة، في أن ينزل الآن ويضع الساعة أمام الجميع، أن يسأل بصوت هادئ من صاحبها، أن يرى وجه ينال حين يُسأل. لكن فكرة أخرى، أعمق وأقدم من أي غضب لحظي، منعته: فالرجل الذي يفضح شكوكه أمام الآخرين، في عالمه، لا يبدو رجلًا يطالب بحقه، بل رجلًا فقد سيطرته على بيته، وهذا، في ميزان لم يكتبه أحد لكن الجميع يزنون به أنفسهم، أسوأ بكثير من الخيانة نفسها. الخيانة يمكن إخفاؤها. أما فقدان السيطرة أمام شهود، فلا يُنسى أبداً.

أخفى الساعة في جيب سترته الداخلي، بحركة سريعة وهادئة، وأعاد ترتيب الشرشف كما كان، والتقط الزجاجة، ونظر إلى نفسه في مرآة الغرفة للحظة، متأكداً أن وجهه لا يحمل شيئاً يخون ما بداخله، قبل أن ينزل الدرج بالخطى المعتادة نفسها، بالابتسامة المعتادة نفسها، وكأن شيئاً لم يتغيّر في العالم خلال الدقائق الخمس الماضية.

وبينما كان ينزل الدرج، فكّر بسرعة، بذلك النوع من التفكير المضغوط الذي يحدث في ثوانٍ معدودة حين يحتاج العقل أن يخطط بينما الجسد لا يزال يبتسم: لن يواجه أحداً الليلة. لن يفسد على زوجته وابنه فرحتهما بهذه الليلة، ولا سمعة زوجته أمام ضيوفها، ولا الصورة التي بناها بعناية على مدار عشرين عاماً. سيراقب فقط. سيجمع كل قطعة أخرى تصل إليه، بصبر من يعرف أن المواجهة المتسرعة تخسر أكثر مما تكسب، حتى يصل إلى تلك اللحظة التي لا يعود فيها أي مجال للشك، ولا لأي رد فعل غير حاسم. كان هذا، في نهاية الأمر، ما تعلّمه طوال حياته دون أن يسميه أحد درساً: أن السيطرة الحقيقية لا تكون بالانفجار، بل بالصبر الذي يجعل الانفجار، حين يأتي أخيراً، لا يُقاوَم. وربما كان هذا نفسه ما ورثه عن أبيه أكثر من أي شيء آخر في تلك الثروة الطويلة التي تركها له: ليس المال، ولا الاسم، بل ذلك الانضباط الداخلي الصارم الذي يعرف كيف يحتفظ بالحساب معلّقاً لأطول وقت ممكن، حتى يصبح تسديده، حين يحين موعده أخيراً، أثقل بكثير مما كان سيكون لو دُفع فوراً.

في الأسفل، كان الحفل قد بلغ ذروته: الكعكة على الطاولة الكبيرة، الجميع يغنون، كريم يصوّر بهاتفه ويضحك، وسيلين تقف إلى جانب يوهان بمجرد أن رأته ينزل، تمسك يده وتضغط عليها بحنان. نظر يوهان، بلا قصد ظاهري، إلى معصم ينال الذي كان يقف على الجهة المقابلة من الطاولة يصفّق ويغني مع البقية، فرأى ما كان يتوقعه ويخشاه في آنٍ واحد: معصماً عارياً تماماً، بلا ساعة، بلا أي أثر لها.

مرّت تلك الثواني بثقل لم يعرفه من قبل، وشعر، للحظة، بأن كل من في تلك الحديقة قادر على سماع دقات قلبه، رغم أنه كان يعرف، بجزء عاقل من ذهنه، أن لا أحد ينتبه إليه أكثر من انتباهه المعتاد؛ فالناس، في احتفالاتهم، مشغولون دائماً بأنفسهم أكثر مما يظن صاحب الحفل، وهذه، ربما، إحدى الرحمات الصغيرة النادرة التي يمنحها المجتمع لأعضائه دون أن يقصد. ولم يكن يوهان، في تلك اللحظة، الرجل الوحيد في حديقته الذي يحمل سراً؛ فلكل ضيف تقريباً، لو دُقّق النظر جيداً، حكاية صغيرة لا يعرفها أحد آخر، خيبة قديمة، ندماً مؤجلًا، خوفاً من فقدان شيء لا يُقال بصوت عالٍ. لكنه، في تلك اللحظة بالذات، لم يكن قادراً على رؤية أي من ذلك؛ فسرّه هو، الثقيل الطازج في جيبه، كان قد ملأ عالمه بأكمله، حتى بدا له أن لا أحد آخر في تلك الحديقة يحمل شيئاً يستحق أن يُقارن بثقله. لم يقل يوهان شيئاً. نفخ الشموع حين طُلب منه ذلك، ابتسم للكاميرات، شكر الجميع بكلمات قصيرة مؤثرة أعدّها مسبقاً، وضحك في اللحظة المناسبة تماماً، وكأن رجلًا آخر بداخله كان يتولى إدارة الأمسية بالكامل، بينما كان يوهان الحقيقي يقف في مكان بعيد، يراقب المشهد كله من خلف زجاج سميك لا يستطيع أحد أن يخترقه، ويشعر بثقل صغير في جيب سترته يكاد يكون أثقل من كل ما تحمله تلك الليلة من ضحكات.

لاحظت سيلين، في لحظة عابرة، أن شيئاً في نظرة زوجها قد تغيّر قليلًا، فاقتربت منه وسألته بصوت خفيض لا يسمعه أحد غيره، عيناها تتفحصان وجهه بدقة من عرفت كل تجعيدة فيه: "كل شيء بخير؟ تبدو متعباً فجأة." ابتسم لها ابتسامة واثقة تماماً، وقال: "بخير، فقط أفكر في خطاب العمل غداً." صدّقته على الفور، بلا أدنى تردد، لأن يوهان، ببساطة، لم يكن من النوع الذي

يكذب على زوجته، وهذا بالتحديد ما جعل الكذبة الصغيرة، تلك الليلة، تمرّ بسهولة أكبر من أي كذبة قالها من قبل.

وبينما كان يوهان يقف هناك، بين ضيوفه، بابتسامته المرسومة بعناية، فكّر، بشكل عابر لم يستطع تفسيره بالكامل، في أن الأشياء المادية تملك سلطة غريبة لا تملكها الكلمات: فحين تشمّ رائحة، يمكنك أن تشكّ في أنفك؛ أما حين تُمسك ساعة بين أصابعك، بثقلها الحقيقي، ببرودتها المعدنية، فلا مجال بعدها لإقناع نفسك بأنها لم تكن هناك. لم تكن الساعة تتكلم، بالطبع، ولم تكن تحمل في ذاتها أي معنى أكثر من كونها قطعة معدن وجلد تدور فيها عقارب متوقفة؛ لكن يوهان، كغيره من كل من يبحث عن يقين وسط ضباب، منحها معنى لم تطلبه هي، وصدّق، دون أن يسأل نفسه من صاغ هذا المعنى أصلًا، أنها هي من تتكلم، لا هو من يُلقي عليها الكلام.

وهذا، ربما، أخطر ما في الأدلة التي نجدها بأنفسنا دون أن يقدّمها لنا أحد: أننا نصدّق تفسيرنا لها كما نصدّق حقيقة لا يد لنا فيها، بينما نحن، في الحقيقة، مؤلفوها الوحيدون. فما يسمّيه المرء "يقيناً" ليس، في أغلب الأحيان، سوى قصة أحكم صنعها، إلى درجة نسي معها أنه هو من كتبها.

اقترب منه ينال في وقت لاحق من الأمسية، يحمل كأسين من النبيذ، ومدّ له إحداهما بابتسامته المعتادة. "نخبك يا صديقي. عام جديد، وأنت لا تزال أفضل رجل أعرفه". رفع يوهان كأسه، وشرب، ونظر إلى عيني صديقه القديم بحثاً عن أي شيء، أي شيء على الإطلاق، يخون هذا الوجه الهادئ تماماً. لم يجد شيئاً. وهذا، أكثر من أي دليل آخر تلك الليلة، هو ما أرعبه فعلًا: أن يكون الإنسان الذي يثق به أكثر من أي أحد قادراً على أن يقف أمامه، بهذا القرب، بهذا الصفاء الظاهري، وهو يخفي، إن كان يخفي فعلًا شيئاً ، كل شيء بهذه البراعة.

"كيف كان يومك قبل أن تصل؟" سأله يوهان بنبرة عادية تماماً، وهو يحاول أن يبدو كمن يطرح سؤالًا عابراً لا أكثر. "مررت بأي مكان مثير للاهتمام؟" ضحك ينال وهزّ كتفيه: "لا شيء يستحق الذكر، اجتماع في المكتب حتى الظهيرة، ثم عدت

إلى بيتي لأرتدي ثياباً تليق بحفلة صديقي العزيز". لم يذكر شيئاً عن المرور بالبيت، ولم يسأله يوهان بشكل مباشر إن كان قد فعل، لأن سؤالًا كهذا، لو طُرح بوضوح أكثر، كان سيكشف من صاحبه أكثر مما قد يكشف من المُجيب عنه. اكتفى يوهان بالإيماء وابتسامة عابرة، وخزّن الإجابة، كما خزّن كل شيء آخر تلك الليلة، في ذلك الملف الذي كان يتكوّن بهدوء رهيب داخل رأسه، بلا أن يعرف بعد أي شكل نهائي سيأخذه.

قرب نهاية الحفل، حين بدأ الضيوف بالانصراف تباعاً، وقف يوهان عند الباب يودّع كل واحد منهم بالطريقة التي تليق به بالضبط: مصافحة سريعة رسمية لشركاء العمل الذين حضروا واجباً لا رغبة، عناق أطول قليلًا لأصدقاء العائلة القدامى، وكلمات حانية خاصة لكبار السن ممن عرفوا والده. كانت هذه التدرجات الصغيرة في الوداع نفسها جزءاً من اللغة التي وُلد يوهان يتقنها: لا أحد يعلّمك متى تصافح ومتى تعانق، لكنك تعرف، بيقين غريب لا يخطئ أبداً، أي درجة من الحميمية يستحقها كل ضيف بالضبط، وكأن هناك مقياساً خفياً في داخلك يقيس المسافات الاجتماعية بدقة آلة لا تُرى.

جلس كريم إلى جانب ينال على درجات الشرفة الخلفية، الاثنان يتحدثان بحماسة عن الرحلة الموعودة. "لن أنسى وعدك"، قال كريم بابتسامة عريضة، "قلت إنك ستعلّمني القيادة قبل أن أحصل على رخصتي".

"لم أنسَ شيئاً"، ضحك ينال وربّت على كتفه، "سنبدأ في أول عطلة نهاية أسبوع تناسبنا.. سأحضر لك أيضاً هدية صغيرة من تلك الرحلة التي سنقوم بها إلى البحر، شيئاً يليق برجل يتعلم القيادة لأول مرة".

"هل أخبرت أبي بأنك ستصطحبني إلى البحر أيضاً، لا القيادة فقط؟" سأل كريم بفضول، فأجاب ينال وهو ينظر نحو يوهان الواقف على مسافة قريبة: "سأخبره بكل شيء يا صغيري، لا أخفي عن أبيك شيئاً في حياتي". وضحك، ولم يكن يقصد بجملته تلك أي معنى مضاعف؛ كانت مجرد كلمة عابرة قالها كما يقول المرء عشرات الجمل العابرة كل يوم دون أن يزنها. لكن يوهان، الذي سمعها بوضوح

من مكانه، شعر بها تستقر في مكان لم يعد فيه أي مكان بريء لأي جملة على الإطلاق.

عانقه كريم بلا تردد، بحرارة الابن الذي وجد في صديق أبيه أباً إضافياً لم يطلبه لكنه سعيد به، وكان يوهان يقف على مسافة قريبة، يراقب المشهد كما راقبه من قبل، لكن هذه المرة، بثقل الساعة في جيبه، كان كل شيء في ذلك العناق يبدو له مختلفاً تماماً عما بدا عليه قبل أسابيع قليلة فقط: لم يعد مشهداً دافئاً بريئاً، بل أصبح، في عينيه، دليلًا إضافياً يُضاف إلى ملف يتكوّن ببطء رهيب داخل رأسه.

غادر آخر الضيوف عند تلك اللحظة تقريباً، وبقي يوهان يقف عند الباب وحده للحظة، يراقب سيارات الضيوف الأخيرة وهي تبتعد في الطريق المظلم خارج البوابة الحديدية، ويشعر، بلا سبب واضح، بذلك الفراغ الغريب الذي يعقب دائماً أي احتفال كبير: تلك اللحظة التي يخلو فيها البيت أخيراً من الضجيج الذي ملأه لساعات، ويعود الصمت، بثقله المعتاد، ليأخذ مكانه من جديد، وكأنه كان ينتظر بصبر في الظل طوال الوقت.

غادر آخر الضيوف قرابة منتصف الليل، وبقي البيت، كعادته بعد كل احتفال كبير، في تلك الحالة الغريبة من الفوضى المنظمة: كؤوس فارغة على كل سطح تقريباً، بقايا كعكة، كراسٍ منقولة من أماكنها الأصلية. سيلين ساعدت نجاة، التي عادت للمساعدة في التنظيف رغم تأخر الساعة، على إعادة ترتيب ما يمكن ترتيبه تلك الليلة، بينما جلس يوهان وحده في الحديقة الخلفية لبضع دقائق، يداه في جيبيه، إحداهما تلامس معدن الساعة الباردة كأنه يتحقق من أنها لا تزال هناك، أنها لم تكن حلماً.

أتت إليه سيلين بعد قليل، منهكة لكن سعيدة، وجلست على المقعد المجاور له، وأسندت رأسها على كتفه. "أظن أن الحفلة نجحت هذا العام أكثر من أي عام مضى"، قالت وهي تتثاءب بخفة. "ينال أخبرني أنه لم يستمتع بأمسية هكذا منذ زمن طويل". أومأ يوهان برأسه، ولم يعلّق، فسألته: "أنت هادئ الليلة أكثر من

المعتاد. متأكد أنك بخير؟" نظر إليها، إلى وجهها المتعب تحت ضوء القمر، وشعر للحظة برغبة غريبة أن يضعها أمامه، أن يخرج الساعة من جيبه ويسألها ببساطة: هل تعرفين لمن هذه؟ لكنه ابتلع الرغبة كما ابتلع كل شيء آخر تلك الليلة، وقال فقط: "متعب قليلًا، هذا كل شيء.. كان يوماً طويلًا". قبّلته على خدّه، وقالت إنها ستصعد لتنام، وتركته وحده مرة أخرى مع الحديقة الفارغة وبقايا الحفل من حوله.

فالحقيقة، حين تصل متأخرة، لا تُقدَّم أبداً بلطف. تصل دائماً محمّلة بكل ما لم يُقَل طوال السنوات التي سبقتها، وكأنها تريد أن تعوّض عن كل صمتها القديم دفعة واحدة.

صعد يوهان إلى غرفته أخيراً، بعد أن أطفأ آخر الأنوار في الطابق السفلي، وتفقّد الأبواب مرتين كما يفعل كل ليلة بعادة راسخة لا يتذكر متى بدأت، ووجد سيلين نائمة بالفعل، منهكة من يوم طويل من الاستعدادات والاستقبال. جلس على حافة السرير في العتمة، وأخرج الساعة من جيبه، وتأملها مرة أخرى تحت ضوء خافت من هاتفه، وكأنه يريد أن يتأكد، للمرة الأخيرة تلك الليلة، أن ما رآه كان حقيقياً فعلًا. ثم فتح الدرج الجانبي لخزانته الخاصة، ذلك الذي يحتفظ فيه بأشياء صغيرة لا يفتحه أحد غيره منذ سنوات، ووضع الساعة في أقصى زاوية منه، تحت طبقة من الأوراق القديمة، وأغلقه بهدوء، وكأنه يدفن شيئاً لا يريد أن يُدفن فعلًا، بل أن يبقى قريباً منه، حاضراً، جاهزاً ليُستدعى في اللحظة التي يقرر فيها أخيراً أن يواجه ما لم يعد بإمكانه إنكاره.

أطفأ ضوء الغرفة، لكنه لم يستطع أن يغمض عينيه فوراً. استلقى بجانب سيلين، وحدّق في العتمة طويلًا. لم يكن الشك، في تلك اللحظة، قد تحول بعد إلى يقين كامل؛ فيوهان، كابن لعالمه، لم يكن ليسمح لنفسه بأن يقفز إلى نتيجة نهائية من دون دليل أخير، دليل لا يقبل الجدل. لكنه شعر، وهو يغمض عينيه أخيراً بعد ليلة طويلة، أن شيئاً بداخله قد تغيّر بشكل لا رجعة فيه: فالرجل الذي كان يستطيع، قبل أسابيع قليلة فقط، أن يقنع نفسه برائحة عابرة، لم يعد قادراً الآن على أن يقنع نفسه بأي شيء على الإطلاق.

فكّر أيضاً، بذلك الوضوح البارد الذي يزور المرء أحياناً في عمق الليل حين تنام كل الأصوات من حوله، في أن العائلة التي بناها، بكل ما تبدو عليه من رسوخ، لم تكن يوماً أكثر من قصة يرويها لنفسه بثقة، وأن القصص، مهما طال الزمن الذي عِشناها على أنها حقائق، تبقى قصصاً قابلة، في لحظة واحدة غير متوقعة، لأن تُروى من جديد، بترتيب مختلف تماماً للأحداث نفسها.

ولعل أقسى ما في فقدان اليقين ليس الشك نفسه، بل تذكّر كم كان الأمر سهلًا، قبل ذلك، ألا نشكّ في شيء.

نام تلك الليلة نوماً متقطعاً، يستيقظ بين الحين والآخر بلا سبب واضح، ليجد نفسه في كل مرة يتحسس، بلا وعي منه، جيب سترته المعلقة على الكرسي القريب، وكأنه يتأكد أن ما وجده تلك الليلة لم يكن مجرد قطعة أخرى من الأثاث الذي اعتاد ألا يسأل عنه. وفي إحدى تلك الصحوات القصيرة، قرب الفجر، وجد نفسه يحدّق في ظهر سيلين النائمة، في انحناءة كتفها التي عرفها عن ظهر قلب طوال عشرين عاماً من الزواج، ويسأل نفسه، لأول مرة في حياته كلها، سؤالًا لم يكن يظن أنه سيحتاج إليه يوماً: هل أعرف هذه المرأة فعلًا، أم أنني فقط تعوّدت على فكرة أنني أعرفها؟

فكّر أيضاً، بينما كانت السماء تبدأ بالتحول من سواد كامل إلى زرقة باهتة تنذر بفجر قريب، في أن كل ما بناه من ثقة بنفسه، من يقين بأنه رجل يقرأ الناس جيداً، لم يكن في الحقيقة سوى امتداد آخر لذلك اليقين الأعمق الذي وُلد فيه: أن العالم يجب أن يتصرف كما تعلّم هو أن يتوقع منه أن يتصرف، وأن الأشخاص الذين اختارهم ليكونوا الأقرب إليه لا بد أن يبقوا كما عرفهم دائماً، لأن البديل، أن يكون قد أخطأ طوال هذه السنوات في قراءة أقرب الناس إليه، كان أثقل من أن يحتمله عقل تعوّد ألا يُختبر.

أغمض عينيه أخيراً مع خيوط الفجر الأولى، بلا جواب، وبيقين واحد فقط لم يفارقه حتى في تلك اللحظة الهشة: أنه، مهما حدث، لن يكون أول من يكسر صمت هذا البيت .

سيراقب .

سينتظر .

وسيدع الحقيقة، إن كانت قادمة فعلًا، تأتي إليه بنفسها، لا أن يركض هو نحوها.

وفي الدرج، في تلك الزاوية المظلمة من خزانته حيث تركها، ظلت الساعة الصغيرة صامتة طوال الليل، متوقفة عند اللحظة نفسها التي توقفت عندها منذ زمن لا يعرفه أحد، غير مدركة أنها، من بين كل الأشياء التي حملها ذلك البيت الكبير، هي وحدها من أصبحت، تلك الليلة، تقيس الوقت الحقيقي: لا الساعات والدقائق التي تعدّها عقاربها المتجمدة، بل تلك المسافة الغامضة التي بدأت تتسع، بصمت، بين رجل ظنّ أنه يعرف كل شيء عن حياته، وبين الحياة التي كان يعيشها فعلًا.

الفصل الثالث

كلمة من فم غريب

لم تمرّ أكثر من عشرة أيام على الحفلة حين خرج كريم وينال في أول درس فعلي للقيادة، عصر ثلاثاء اختاره ينال بنفسه لأن "الطرقات في منتصف الأسبوع أهدأ بكثير من نهايته"، على حد قوله. عاد كريم إلى البيت قبل المغرب بقليل، يقفز الدرجات اثنتين اثنتين، صوته يسبقه من الباب: "بابا! ركنتُ السيارة بين إشارتين من أول محاولة، وينال نفسه لم يكن يتوقع ذلك!" جلس إلى المائدة يروي التفاصيل بحماسة لا تهدأ: كيف ضحك ينال حين صعد الرصيف بالخطأ، وكيف علّمه أن يستمع لصوت المحرك لا لعقارب لوحة القيادة، وكيف اشترى له عصيراً بارداً من كشك على الطريق واحتفلا بـ"أول موقف ناجح في تاريخ البشرية" كما وصفه ينال ضاحكاً. استمع يوهان لكل كلمة بابتسامة ثابتة على وجهه، وبيد لا تكفّ عن تقليب الشوكة في طبقه دون أن ترفع منه لقمة واحدة.

"ومتى الدرس القادم؟" سأل يوهان أخيراً، بصوت حرص أن يخرج مسطحاً كما يخرج أي سؤال عابر آخر. "الخميس، عندي فروض كثيرة هذا الأسبوع، لكن ينال قال إنه سيمرّ بي بعد المدرسة مباشرة، حتى لا ينكسر الروتين". أجاب كريم وهو يمسح فمه بمنديل الورق.أومأ يوهان برأسه، وقال إنها "فكرة ممتازة"، وسمع نفسه يقولها بوضوح كافٍ ليقتنع بها حتى هو، لكنه، حين نهض ليضع صحنه في الحوض، اضطر لأن يمسك بحافة الطاولة لحظة قبل أن يتابع طريقه، كأن شيئاً في ركبتيه قد تخشّب فجأة دون سبب واضح.

لاحظت سيلين ذلك المساء أن يوهان يعيد ترتيب الكتب على رف المكتبة بلا داعٍ حقيقي، فسألته وهي تمرّ خلفه: "كل شيء بخير حبيبي؟" التفت إليها، وابتسم، وقال إن العمل مرهق هذه الأيام لا أكثر، فأومأت برأسها وتابعت طريقها، غير مدركة أن يديه، وهو يعيد الكتب إلى أماكنها، كانتا تبحثان عن نظام ما، عن ترتيب يمكن السيطرة عليه، في عالم بدأ يشعر أن كل شيء فيه، خارج تلك الرفوف الصغيرة، أفلت من يده.

في صباح اليوم التالي، وجد يوهان نفسه يقف عند باب غرفة كريم قبل أن يغادر إلى عمله، يراقبه من الفتحة الضيقة وهو يستعد للمدرسة أمام المرآة، يرتب شعره بحركة يد سريعة متكررة، ثم يبتسم لنفسه في المرآة ابتسامة صغيرة لا علاقة لها بشعره أو شكله على الإطلاق". على من هذه الابتسامة؟" سأله يوهان مداعباً وهو يدخل الغرفة. احمرّ وجه كريم فوراً، وسارَع بإخفاء هاتفه في جيبه، محاولًا التكتم، لكن ارتباكه الفاضح لم يزد يوهان إلا فضولًا وشكاً. "لا أحد، لكن... هناك فتاة في صفّي، اسمها جوري، ترسل لي أحياناً..." توقف، وابتسم ابتسامة أوسع هذه المرة، غير قادر على كتمها. "تحب الرسم كما أحب أنا التصوير. لكنني لم أخبرها بعد أنني معجب بها."

جلس يوهان على طرف السرير، وسأله عنها بفضول أب حقيقي لا فضول محقق، عن صفها، عن رسوماتها، عمّا يجعله يظن أنها ستقول نعم لو دعاها لشيء بسيط. تحدث كريم بانفتاح نادر، بصوت يرتفع وينخفض مع كل تفصيلة، وضحك يوهان معه بصدق، بلا أي أثر للثقل الذي رافقه منذ أسابيع، وشعر، للحظات قليلة، أنه استعاد شيئاً كان قد بدأ يفلت منه دون أن يلاحظ: أنه لا يزال، رغم كل شيء، الأب الذي يعرف تفاصيل حياة ابنه الصغيرة قبل أي أحد آخر.

قبل أن يغادر الغرفة، أمسك كريم بذراع أبيه فجأة، وقال، بجديّة غير معتادة لشاب على مشارف الثامنة عشرة: "أبي، بصراحة، أنا وينال قريبون كثيراً هذه الأيام، وأعرف أن هذا ربما يزعجك قليلًا. لكنه لا يشبهك أبداً، أنت أبي، وهذا لن يتغير". لم يكن يوهان يتوقع تلك الجملة على الإطلاق، ووقف صامتاً لحظة، محاولًا أن يفهم من أين أتت، قبل أن يبتسم ويربّت على كتف ابنه ويقول إنه لم يقلق يوماً بشأن ذلك. لكنه، وهو يغادر الغرفة، شعر بدوار خفيف لم يعرف مصدره بالضبط: هل كانت تلك الجملة طمأنة بريئة من ابن يحب أباه، أم أنها، في مكان ما، إشارة إلى أن الجميع، حتى كريم نفسه، بدأوا يلاحظون شيئاً لم يقله أحد بصوت عالٍ بعد؟

لم يدم ذلك الشعور طويلًا. فبعد ثلاثة أيام فقط، اتصل به كريم عصر السبت بصوت متوتر يطلب إذناً لحفلة شاطئية يقيمها أصدقاؤه تلك الليلة بالذات، "الجميع ذاهبون، وجوري ستكون هناك". رفض يوهان بحزم أكبر مما قصد، محتجاً بأن الحفلات الليلية على الشاطئ "ليست مكاناً مناسباً لشاب في عمره"، فارتفع صوت كريم للمرة الأولى منذ سنوات في وجه أبيه "لم تعد تفصلني عن الثامنة عشرة سوى أشهر قليلة يا أبي، لست طفلًا! كل أصدقائي ذاهبون، وأنا الوحيد الذي يرجوك وكأنه صغير!" أغلق باب غرفته بقوة كافية لتهتز الصورة المعلقة في الممر، تاركاً يوهان واقفاً في الممر، يداه معلقتان في الهواء بلا فعل، وكأنه يحاول أن يمسك بشيء أفلت منه للتو ولم يكن يعرف أنه كان يحمله أصلًا.

في المساء جاءت سيلين لتتوسط، وجلست على حافة سرير كريم تستمع إليه وهو يشكو من "أب صار يخاف من كل شيء فجأة"، ثم نزلت إلى يوهان في المكتب وسألته بهدوء: "لماذا رفضت بهذه الحدة؟ هو شاب مسؤول، ونعرف أصدقاءه جميعاً". لم يجد يوهان جواباً حقيقياً

يقوله لها؛ فالحقيقة أن رفضه لم يكن عن الحفلة، بل عن ذلك الخيط الرفيع من استقلالية ابنه الذي شعر، دون أن يفهم لماذا، أنه يبتعد عنه أسرع مما ينبغي. وافق أخيراً، بشرط أن يعود قبل منتصف الليل، وشرط آخر لم يقله بصوت عالٍ: أن يتصل به هو، لا أحد غيره، إن احتاج إلى أي شيء.

ذهب كريم إلى الحفلة الشاطئية مساء ذلك السبت بقميص اختاره ثلاث مرات قبل أن يستقر عليه، وعطر رشّه على رقبته بكمية أكبر من اللازم جعل يوهان يسعل مازحاً حين ودّعه عند الباب. عاد بعد منتصف الليل بقليل، متسللًا على أطراف أصابعه، لكنه وجد يوهان مستيقظاً في الصالة يتظاهر بقراءة تقرير عمل. جلس كريم أمامه على الأريكة، وجهه لا يزال يحمل ابتسامة لم تُمحَ منذ ساعات، وقال بصوت خافت متحمس: "تحدثتُ معها يا أبي. جوري. تحدثنا ساعتين كاملتين على الرمل، وضحكت على كل نكتة قلتها، حتى النكت السخيفة!" ضحك يوهان بصدق، وسأله عن التفاصيل، وبقيا يتحدثان حتى الواحدة صباحاً، وشعر يوهان، وهو يراقب ابنه يتحدث بتلك السعادة الخام غير المصقولة، أن كل ما يزعجه في هذه الأيام يذوب، للحظة، في هذا المشهد بالذات: شاب سعيد يروي لأبيه أول قصة حب في حياته. في تلك الليلة، لم يكن يوهان يناظر ابنه من برج الأبوة، بل كان يجاوره على مقعد الصداقة؛ وحين يصير الأب صديقاً، تجد أسرار الفتوة ملجأها الآمن دون خوف، إذ إن أعظم ما يمنحه الأب لابنه ليس النصيحة، بل أن يمنحه أذناً تصغي لشغفه دون أن تصدر حكاماً.

لم يمرّ يوم كامل على تلك السهرة حين رنّ هاتف يوهان ظهر الأحد. كان يقضي صباحه في النادي الرياضي العائلي، جولة غولف اعتاد أن يلعبها مع شركائه صباح كل أحد، طقس أسبوعي ثابت لا يتنازل عنه إلا نادراً، لأن

أحداً من رجال طبقته، كما تعلّم منذ سنوات، لا يبني علاقات العمل الحقيقية خلف مكتب، بل على أرض عشب مشذّب وسط أحاديث عابرة تبدو بريئة لكنها تحدد، أكثر من أي اجتماع رسمي، من يحصل على أي صفقة في الموسم القادم. وقد ترك هاتفه في خزانة الملابس كعادته أثناء الجولة، قاعدة صارمة لا يخرقها أحد في ذلك النادي، إذ يُنظر إلى من يحمل هاتفه بين الحفر التسعة على أنه رجل لم يتعلّم بعد فن الحضور الكامل في اللحظة. حين عاد إلى الخزانة بعد وقت ليجد رسالة صوتية واحدة من ينال، ضغط على زر التشغيل بيد لا تزال ترتجف من مجهود اللعب، فخرج صوت ينال مبحوحاً سريعاً متقطعاً، وكأن الكلمات تتزاحم لتخرج معاً: "يوهان، كريم معي، عنده ألم شديد في البطن منذ الصباح، بدأ يتلوّى ولون وجهه اصفرّ، أنا ذاهب به إلى المستشفى الآن، تعال بسرعة". أعاد يوهان تشغيل الرسالة مرتين، وكأنه يأمل أن يسمع فيها معنى مختلفاً في المرة الثانية، ثم رأى، أسفل الشاشة، ثلاث مكالمات فائتة من ينال، ومكالمة من سيلين، ورسالة نصية واحدة من كريم نفسه، كُتبت بأحرف متقطعة: "أبي، أين أنت؟"

اندفع يوهان إلى سيارته بملابس الرياضة نفسها التي كان يرتديها. قاد بسرعة تجاوزت كل ما اعتاد عليه، يداه ترتجفان على المقود بدرجة جعلته يضغط عليه بقوة أكبر ليخفي الارتجاف عن نفسه هو قبل أي أحد آخر، وعيناه تنتقلان بين الطريق وشاشة الهاتف المعلق أمامه كل بضع ثوانٍ، بلا أي رسالة جديدة تصله. وصل إلى المستشفى بعد اثنتين وعشرين دقيقة شعر فيها أن الزمن نفسه قد تباطأ عمداً ليعذبه.

ركض من موقف السيارات، عبر الردهة، سأل عن اسم ابنه عند مكتب الاستقبال بصوت مرتفع أكثر مما قصد، وأُرشد إلى الطابق الثالث، جناح الطوارئ الجراحية. صعد السلالم عدواً لا يثق بالمصعد البطيء، ورائحة

الكحول الطبي والمطهرات تلسع أنفه مع كل درجة، وصوت أجهزة المراقبة يتسرب من خلف الأبواب المغلقة على الجانبين كنبض مكتوم متفرق. ولوهلةٍ واحدةٍ عابرة، ظنّ أنه يعرف هذا الممر بالذات من قبل، لا كزائر يعبره لأول مرة بل كمن مشى فيه ألف مرة؛ إحساسٌ غريبٌ لا معنى له طرده بسرعة، وهو يلهث بحثاً عن اسم ابنه على لوحات الأبواب. وحين اقترب من الممر المؤدي إلى غرفة الانتظار، سمع صوت ينال قبل أن يراه، صوتاً لا يزال يحمل ارتجافاً واضحاً، يتحدث إلى رجل يرتدي معطفاً أبيض تحت ضوء أنابيب فلورسنت أبيض بارد يطنّ بصوت خفيف لا يتوقف.

توقف يوهان عند منعطف الممر، على بعد خطوات قليلة لم يرَه منها أحد بعد، وسمع الطبيب يقول، بنبرة الطمأنة المهنية التي يتقنها كل طبيب بعد عملية ناجحة: "الزائدة الدودية، عملية بسيطة ومباشرة، الحمد لله وصلتم في الوقت المناسب. ابنك بخير الآن، سيستيقظ خلال نصف ساعة تقريباً".

ابنك!

وقف يوهان في مكانه، لا يتحرك، بينما استمر الطبيب يشرح تفاصيل ما بعد العملية، وينال يومئ برأسه بجدية تامة، يطرح سؤالًا عن الأدوية، آخر عن موعد المتابعة، وكأن الكلمة لم تسقط من فم الطبيب على الإطلاق، وكأنها لم تكن بحاجة إلى تصحيح لأنها، في تلك اللحظة بالذات، وفي ذلك الممر بالذات، بدت الكلمة الأصح الوحيدة الممكنة.

مرّت ثوانٍ طويلة قبل أن يستطيع يوهان أن يحرّك قدميه، ثوانٍ شعر فيها أن الممر كله يميل قليلًا تحت قدميه، وأن أصوات الأجهزة الطبية من حوله قد ابتعدت فجأة إلى مكان بعيد مكتوم، وكأنه يسمعها من

تحت الماء. أغمض عينيه للحظة واحدة، وفتحهما، وأجبر نفسه على التنفس ببطء، شهيقاً طويلًا ثم زفيراً أطول، بالطريقة نفسها التي علّمه إياها مدرّبه الرياضي منذ سنوات ليضبط نبضه قبل اجتماعات العمل الكبرى.

لم يقل ينال شيئاً. لم يبتسم اعتذاراً، ولم يلتفت نحو الممر ليبحث عن يوهان، ولم يصحح للطبيب معلومة بسيطة كان يكفي نصف ثانية ليقولها: "أنا صديق العائلة، لست الأب." ابتلع يوهان ريقه بصعوبة واضحة، وشعر بحرارة تصعد من صدره إلى أذنيه، وبقبضة يده اليمنى تتصلّبُ بعنفٍ حتى كادَت عظامُها تخترِقُ جلَدَه، وبقي واقفاً هناك، غير قادر على أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام، وكأن قدميه قد تجذّرتا في بلاط الممر البارد.

تقدّم أخيراً، بخطوات ثقيلة تعمّد أن يصدر بها صوتاً أعلى من المعتاد على البلاط، فالتفت ينال نحوه فوراً، وارتسمت على وجهه علامات الراحة الحقيقية، لا التمثيل: "يوهان! الحمد لله وصلت، كريم بخير، العملية نجحت، كان..." توقف حين رأى وجه يوهان، وسأل، بقلق صادق: "ما بك يا أخي؟ لونك شاحب."

"أنا بخير"، قال يوهان بصوت منخفض جداً، بالكاد يخرج من بين أسنانه المطبقة. مدّ يده نحو الطبيب مصافحاً، وسأله بأدب تام عن حالة ابنه، عن موعد زيارته، عن أي شيء يحتاج معرفته، وكأن الجملة التي سمعها قبل دقيقة لم تُقل، وكأن رجلًا آخر بداخله كان يتولى إدارة تلك المحادثة بالكامل، بينما كان يوهان الحقيقي لا يزال واقفاً في مكانه من الممر، يعيد سماع تلك الكلمة مراراً في رأسه: ابنك، ابنك، ابنك.

دخل ينال إلى غرفة الانتظار ليحضر كوب ماء، وبقي يوهان وحده مع الطبيب للحظة، فسأله بنبرة حاول أن يبقيها خفيفة: "دكتور، هل تحدثت أنت إلى السيد ينال طوال الوقت، أم كان هناك من تحدث معك سابقاً عبر الهاتف أيضاً؟" رفع الطبيب حاجبيه قليلًا، غير مدرك لثقل السؤال: "لا، السيد ينال هو من أوصله ووقّع على أوراق الموافقة على العملية بصفته المرافق، لم يكن هناك وقت لانتظار أحد آخر، الحالة كانت طارئة." ابتسم يوهان ابتسامة باهتة، وشكره، وابتعد نحو النافذة في نهاية الممر، ووضع كفّه على الزجاج البارد، وحدّق في موقف السيارات في الأسفل دون أن يرى شيئاً فيه على الإطلاق. لم تكن المشكلة في أي ورقة رسمية؛ فالأوراق كانت سليمة تماماً، تحمل اسم كريم وحده كما ينبغي. المشكلة كانت في تلك الكلمة الواحدة التي خرجت من فم رجل غريب، بلا سبب سوى أنها بدت له الأقرب إلى الحقيقة.

وصلت سيلين بعد دقائق قليلة، شعرها غير مصفف، معطفها معقود بعجلة فوق ثوب المنزل، وركضت مباشرة نحو غرفة العمليات قبل أن تلاحظ حتى وجود يوهان، ثم عادت إليه، عانقته بقوة، وبكت للحظة على كتفه بدموع خفيفة سريعة أفرغت توترها كله دفعة واحدة. ضمّها يوهان يربّت على ظهرها بدفء صادق، مدركاً أن خوفها على ابنهما لم يكن أداءً مسرحياً، مهما ادعى طبيب مجهد.

سألته وهي لا تزال بين ذراعيه: "كيف عرف ينال أين يأخذه؟ كيف كان هادئاً هكذا في موقف كهذا؟" فأجابها يوهان، بصوت لم يخل من مرارة خفيفة لم تلحظها هي: "لأنه يعرف كل شيء عن هذا البيت، على ما يبدو، أكثر مما نظن أحياناً".

سُمح ليوهان بالجلوس مع كريم بضع دقائق قبل أن يستفيق تماماً من التخدير، فجلس على الكرسي البلاستيكي الصلب قرب السرير، يراقب صدر

ابنه يرتفع وينخفض ببطء منتظم، ويده الصغيرة الدافئة بين يديه الباردتين. وفي الخلفية، كان صفيرُ جهاز المراقبة المعلّق فوق سرير كريم يرافق أنفاسه بإيقاعٍ رتيبٍ متباعد، صفيرٌ سيتذكره يوهان لاحقاً، في أوقاتٍ لا علاقة لها بهذا المستشفى على الإطلاق، أكثر مما ينبغي لمجرد ضجيجٍ عابر. اهتزّ هاتف كريم على الطاولة الجانبية برسالة، فالتقطه يوهان بلا تفكير، فوجد اسم "جوري" على الشاشة: "سمعت أنك في المستشفى، خفت عليك كثيراً، أريد أن أطمئن، رُدّ متى استطعت". قرأ يوهان الرسالة، وابتسم ابتسامة صغيرة حقيقية لم يخطط لها، وكتب رداً قصيراً باسم ابنه: "أنا بخير والحمد لله، عملية بسيطة، سأحكي لك كل شيء عندما أستيقظ". ثم وضع الهاتف في مكانه بعناية، وشعر، للحظة واحدة نظيفة من كل شيء آخر، أنه لا يزال قادراً على حماية شيء ما في حياة ابنه، ولو كان مجرد رسالة نصيّة عابرة.

وصلت كلير بعد سيلين بربع ساعة، لاهثة، حقيبتها لا تزال معلقة على كتف واحد، وقبّلت يوهان على خده ثم سيلين، وسألت عن التفاصيل بسرعة قلقة صادقة. حين شرح لها يوهان، بصوت لا يزال جافاً قليلًا، أن ينال هو من أوصل كريم ووقّع الأوراق لأن الوقت لم يسعف أحداً غيره، أومأت كلير برأسها وقالت، وهي تربّت على ذراعه بحنان: "الحمد لله أنه كان موجوداً. لولا ينال، لا سمح الله، لكان حال كريم أسوأ بكثير". قالتها بعفوية كاملة، بابتسامة امتنان لا يشوبها أي حساب، وواصلت طريقها نحو مقاعد الانتظار، تاركة الجملة معلقة في الهواء خلفها، بينما وقف يوهان في مكانه، يشعر بها تستقر في صدره كحجر بارد، لا لأنها كانت خاطئة، بل لأنها كانت، وهذا بالضبط ما جعلها لا تُحتمل، صحيحة تماماً.

جلسوا جميعاً في غرفة الانتظار قرابة الساعة، ينال يحدّث سيلين عن تفاصيل الصباح بحماسة رجل ما زال قلبه يخفق بسرعة أكبر من طبيعته،

كيف اتصل به كريم أولًا "لأنه، على ما يبدو، كان أقرب رقم إلى ذاكرته"، كيف وجده يتلوّى على الأريكة وحيداً في البيت، كيف حمله بنفسه إلى السيارة لأن الألم منعه من المشي. استمع يوهان لكل تفصيلة، وشعر بها تستقر فوق سابقتها كطبقة إضافية في الجدار نفسه الذي بدأ يرتفع بينه وبين هذا اليوم، حتى وجد نفسه يسأل، بلا مقدمات، وبصوت خرج أكثر حدة مما قصد: "لماذا اتصل بك أنت أولًا؟"

ساد صمت قصير. نظر ينال إليه بذهول لا يخفي شيئاً، وقال، بصدق واضح لم يحاول يوهان حتى أن يشكك فيه: "لا أعرف يا أخي، ربما لأن رقمي كان آخر رقم اتصل به الأسبوع الماضي بعد درس القيادة. لم يكن الأمر مقصوداً بأي شكل". كانت الإجابة بريئة تماماً، منطقية تماماً، ومع ذلك، لم تُخفف شيئاً من الثقل الذي شعر به يوهان؛ فبعض الحقائق، مهما كانت بريئة في ذاتها، تصبح إدانة كافية بمجرد أن تصل في التوقيت الخطأ.

أرادت كلير، وهي ترى التوتر يتصاعد بين الرجلين، أن تخفف الجو، فقالت بابتسامة عابرة موجهة ليوهان: "على كل حال، أنت مرتاح البال، ابنك محظوظ، فقد أعطاه الله بدل الأب اثنين". ضحكت سيلين بخفة موافقة، وضحك ينال أيضاً وهو يهز كتفيه تواضعاً، ولم يلحظ أحد سوى يوهان أن الجملة، رغم خفتها الظاهرة، قد استقرت في مكانها المعتاد تماماً، ذلك المكان الذي كان قد بدأ يتشكل فيه، منذ أسابيع، أرشيف كامل من الجمل البريئة التي لا يسمعها أحد كما يسمعها هو.

سُمح لهم بزيارة كريم بعد نصف ساعة أخرى، فوجدوه شاحباً لكنه مبتسماً، بأنبوب محلول متصل بذراعه، يشتكي من ألم في بطنه بصوت ضعيف لكنه يمازح الجميع في الوقت نفسه. أمسك يوهان بيده، وقبّل جبينه، وجلس على حافة السرير أطول من أي أحد آخر تلك الليلة، بصمت

لم يحتج فيه لأي كلمة، لأن هذا، على الأقل، كان يقيناً واحداً لا يشوبه أي شك: أنه يحب هذا الشاب أكثر من أي شيء آخر في حياته، بغض النظر عن الكلمة التي نطق بها طبيب مرهق في نهاية مناوبة طويلة.

قال كريم، بصوت خافت متعب، وهو ينظر إلى أبيه: "ينال أخبرني أنك كنت في الطريق، آسف لأنني قلقتك يا أبي". ابتسم يوهان، وربّت على يده، وقال إن لا داعي للاعتذار أبداً، وجلس يحدّثه عن أمور صغيرة لا علاقة لها بالمستشفى، عن مباراة قادمة، عن جوري، حتى أضحكه رغم الألم، ولاحظ، وهو يقول ذلك، أن كريم لم يسأل، ولو مرة واحدة، لماذا لم يكن هو أول من اتصل به.

خرج يوهان من الغرفة بعد قليل ليستنشق هواء الممر، فوجد كلير تنتظره هناك وحدها، وقالت له مباشرة، بصوت خفيض حنون: "اذهب أنت واسترح قليلًا، غداً عندك دوام. لا تقلق على كريم، ينال هنا، ولن يتحرك من جانبه". أومأ يوهان برأسه دون أن يجيب، وشعر بالجملة تستقر في مكانها المعتاد: نصيحة بريئة تماماً في ظاهرها، لكنها، في أذن يوهان وحده، بدت وكأنها تُقرّر من صاحب المكان الحقيقي عند سرير ابنه، ومن الضيف الزائد عن الحاجة فيه.

انتظر يوهان حتى ابتعدت كلير نحو غرفة الانتظار، ثم اقترب من ينال وسأله، بصوت خفضه عمداً كي لا يصل إلى أحد سواهما: "لماذا لم تصحح للطبيب؟" رمش ينال بحيرة حقيقية: "أصحح له ماذا؟" "قال لك 'ابنك'. ولم تقل له إنك لست والده". توقف ينال للحظة، وكأن الجملة وصلته للمرة الأولى فقط الآن، ثم قال، بصدق بدا لا تكلّف فيه: "صراحة، لم أنتبه. كان كل تركيزي على العملية، لا على الكلمة. بصراحة يا يوهان، لا أظن أنها غلطة تستحق كل هذا التوتر". نظر إليه يوهان طويلًا، بحثاً عن أثر واحد من الحرج، فلم يجد شيئاً سوى تعب رجل قضى نهاره كله خائفاً على

طفل ليس طفله، وهذا، بالتحديد، ما جعل يوهان يبتعد دون أن يجيب، لأنه لم يعرف، في تلك اللحظة، أيهما أثقل: أن يكون ينال قد تعمّد الصمت، أم ألا يكون قد لاحظه على الإطلاق.

مدّ ينال يده وأمسك بذراع يوهان قبل أن يبتعد تماماً، وقال، بنبرة أكثر جدية: "يوهان، إن كان هناك ما يزعجك حقاً، أريد أن أعرفه. أنت أعز صديق عندي في هذه الحياة، ولن أسامح نفسي إن كان بيننا شيء لم يُقَل". نظر يوهان إلى عيني صديقه، ولثانية واحدة، شعر برغبة حقيقية أن يخبره بكل شيء: الرائحة، الساعة، الكلمة التي قالها الطبيب. لكنه ابتلع الرغبة، كما ابتلع كل شيء آخر منذ أسابيع، وقال فقط: "لا شيء يا صديقي. أنا متعب، هذا كل ما في الأمر". وابتعد نحو غرفة الانتظار، تاركاً وراءه سؤالًا لم يجرؤ على طرحه، وإجابة لم يكن مستعداً بعد لسماعها.

غادر يوهان المستشفى تلك الليلة بعد أن استقر كريم في غرفته واطمأن الجميع إلى تعافيه، ووقف عند باب المصعد مع ينال للحظة. "شكراً لك"، قال يوهان، والكلمة صادقة تماماً رغم كل شيء، لأنه لم يكن، في أعماقه، ناكراً لفضل رجل أنقذ ابنه ولو حمل اسمه كذباً لدقائق. ربّت ينال على كتفه، وقال بابتسامة متعبة: "لا داعي للشكر، هو ابني أيضاً، أليس كذلك؟" ولم يقصد بها، على الأرجح، أكثر من مجاملة عابرة يقولها رجل أحب صديقه وابنه معاً لأكثر من عشرين عاماً؛ لكن يوهان، وهو يدخل المصعد وحده بعد أن اعتذر ينال ليعود إلى غرفة كريم، وقف صامتاً بين الجدران المعدنية اللامعة، ورأى وجهه في المرآة المقابلة، شاحباً، متصلباً، وسأل انعكاسه سؤالًا واحداً لم يجد له جواباً طوال الطريق إلى بيته: منذ متى توقف الجميع عن رؤية الخط الفاصل بيني وبين هذا الرجل؟

قاد سيارته في شوارع فارغة تقريباً في تلك الساعة المتأخرة، والمدينة من حوله تغفو بأضوائها الصفراء الخافتة، وفكّر، بذلك الوضوح القاسي

الذي لا يزور المرء إلا حين يكون متعباً جداً ليكذب على نفسه، في أن أخطر الجمل ليست تلك التي تُقال بنية الأذى، بل تلك التي تُقال بمحبة صافية تماماً، لأن أحداً لا يفكر في تصحيحها، ولا حتى صاحبها.

مرّ على الطريق الساحلي نفسه الذي علّم فيه ينال كريم القيادة قبل أسابيع قليلة، فارغاً في تلك الساعة كما كان فارغاً يومها، وتذكّر فجأة، بوضوح مؤلم، صورة قديمة له هو وابنه على الشاطئ نفسه، حين كان كريم في السابعة من عمره، يركض نحو الماء بضحكة عالية بينما يركض يوهان خلفه، أصغر منه، أخف قلباً، لم يكن قد سمع بعد كلمة واحدة تُقلق نومه. أبطأ السيارة قليلًا، وكأنه يريد أن يمنح تلك الذكرى وقتاً أطول قبل أن تختفي خلفه في المرآة.

وصل إلى البيت الفارغ قرابة منتصف الليل، سيلين بقيت مع كريم، وكلير رافقتها لتساعدها، ودخل غرفة نومه الصامتة، وجلس على حافة السرير في العتمة كما جلس قبل أسابيع قليلة، حين كانت الساعة الفضية لا تزال أغرب شيء واجهه في حياته. فتح الدرج الجانبي، ونظر إلى الساعة النائمة هناك تحت طبقة الأوراق، ثم أغلقه من جديد، وأخرج هاتفه بدلًا منها، وبحث، بأصابع لم تتردد ولو للحظة، عن عبارة لم يظن يوماً أنه سيكتبها بنفسه: "فحص الحمض النووي للأبوة، أقرب مختبر". نظر إلى نتائج البحث تتوالى أمامه على الشاشة، أسماء مختبرات، أسعار، مواعيد، كل واحدة منها بوابة صغيرة نحو يقين لم يعد قادراً على الهروب منه، وضغط بإبهامه على أول رابط ظهر أمامه بثبات لم يعرفه في يده منذ أيام.

في صباح اليوم التالي، وقبل أن يعود إلى المستشفى، توقف يوهان عند مكتبته وألغى موعدين من جدول عمله، الأول اجتماعاً كان قد أعدّ له طوال أسبوع، والثاني غداء عمل مع مستثمر أجنبي، وأخبر مساعدته أنه

"لن يُلغي شيئاً آخر هذا الأسبوع مهما حدث". لم يكن قراراً كبيراً في ظاهره، لكنه، بالنسبة إليه، كان أقرب إلى عهد صامت قطعه على نفسه: ألا يترك ابنه مرّة أخرى وحده في لحظة يحتاجه فيها.

ولعل أقسى ما في الحب أنه لا يسأل عن الحقيقة قبل أن يمنح نفسه بالكامل؛ وحين تصل الحقيقة أخيراً، تجد الحب قد بنى بيتاً كاملًا لا يعرف كيف يخليه.

اتصلت به كلير في صباح اليوم التالي، وهو لا يزال في السرير يحدّق في السقف بلا نوم حقيقي. سألته عن كريم بقلق صادق، ثم أضافت، بنبرة عابرة وهي تتحدث في الوقت نفسه مع شخص آخر في مكتبها: "لا داعي لإلغاء سفرتك القادمة، سيلين أخبرتني أنك ستسافر الأسبوع المقبل. اذهب، أنا وينال هنا، لن ينقص كريم شيء". ابتسم يوهان ابتسامة لا معنى فيها، وشكرها، وأغلق الخط، وبقي جالساً على حافة السرير دقيقة كاملة يعيد الجملة في رأسه: "لن ينقص كريم شيء". لم تكن كلير تقصد به سوءاً، هو يعرف ذلك يقيناً؛ لكنه، رغم ذلك، شعر أن اسمه هو بالتحديد، لا اسم أي شخص آخر، هو الذي بدأ يظهر في تلك الجمل وكأنه تفصيل اختياري، لا ركناً أساسياً في معادلة لا تكتمل من دونه.

عاد كريم إلى البيت في اليوم التالي، إذ لا تستدعي عملية الزائدة الدودية أكثر من ليلة واحدة في المستشفى، واستقر في غرفته يتعافى ببطء تحت أعين سيلين القلقة. مرّت الأيام الثلاثة التالية بإيقاع لم يعرفه يوهان من قبل: يستيقظ باكراً، يمرّ بغرفة كريم ليطمئن عليه بضع دقائق قبل أن يهرع إلى مكتبه لاجتماعات لا تنتهي، ثم يعود مساءً منهكاً ليجد ينال قد سبقه بساعات، جالساً على حافة سرير كريم يلعبان لعبة ورق، أو يشاهدان مباراة، أو يضحكان على مقطع مصوّر أرسله أحد الأصدقاء. في أحد تلك المساءات، وصل ينال ومعه وسادة طبية داعمة "اشتراها

خصيصاً من صيدلية يعرفها"، وفي مساء آخر، جلس يقرأ لكريم فصلًا كاملًا من رواية بوليسية بصوت مسرحي جعل سيلين تطل من المطبخ ضاحكة. كان يوهان يدخل الغرفة في كل مرّة ليجد المشهد نفسه تقريباً: أباً يجلس عند السرير، وابناً يضحك، وهو، يوهان، يقف عند العتبة يخلع سترته ببطء أكبر مما تحتاجه الحركة، وكأنه يمنح نفسه ثانية إضافية قبل أن يدخل مشهداً لم يعد متأكداً أنه البطل الرئيسي فيه. وفي أحد تلك المساءات، حين خرج ينال أخيراً بعد ساعتين طويلتين من المزاح والضحك، جلس يوهان مكانه على الكرسي البلاستيكي، وأمسك بيد ابنه الدافئة، وسأله فجأة: "هل تفضّل لو أن ينال هو والدك؟" ضحك كريم مستغرباً، وقال: "بابا، ما هذا السؤال الغريب؟ أنت أبي، ولن يتغير هذا مهما حدث". ابتسم يوهان، وقبّل جبينه، ولم يخبره أن السؤال لم يكن مزحة على الإطلاق، بل أصدق سؤال طرحه على أحد منذ أسابيع طويلة.

مرّت كلير أيضاً في أحد تلك الأيام، وجلست على طرف السرير تداعب شعر كريم بحنان أخوّة العمّة الوحيدة، وسألته إن كان ينال قد أحضر له "قصص المستشفى المضحكة" التي يرويها لكل من يعرفه، فضحك كريم وقال إن ينال "يجعل حتى الألم يبدو مغامرة". غادرت كلير الغرفة لتجد يوهان في الصالة يراجع بريده الإلكتروني على هاتفه، فجلست إلى جانبه، ووضعت يدها على ذراعه، وقالت بصوت هادئ: "أعرف أن هذا الأسبوع كان ثقيلًا عليك. لكن انظر إلى الجانب الجميل: كريم عنده من يحبه من كل الجهات، أنت وسيلين وينال وأنا، أربعة أشخاص يسهرون على راحته. أي طفل يحظى بهذا؟" ابتسم يوهان، وشكرها، ولم يقل إن العدد نفسه، أربعة بدل ثلاثة، كان بالضبط ما يقض مضجعه منذ أسابيع.

لم يكن ذلك الأسبوع خالياً من توتر آخر. فبعد أن عاد كريم إلى المدرسة، استُدعي يوهان لمقابلة مديرة الشؤون الأكاديمية، امرأة صارمة النظارة

أخبرته، بلا مقدمات تقريباً، أن درجات كريم في مادتي الرياضيات والكيمياء "تراجعت بشكل يستدعي القلق" خلال الشهرين الأخيرين، وأن أستاذ الرياضيات لاحظ أنه "شارد الذهن باستمرار، يحمل هاتفه في يده حتى أثناء الحصة أحياناً". عاد يوهان إلى البيت ذلك المساء بوجه أكثر تجهماً من المعتاد، ودخل غرفة كريم دون أن يطرق، فوجده منبطحاً على سريره يراسل أحداً بابتسامة غائبة عن العالم. "لماذا لم تخبرني أن درجاتك تراجعت؟" سأله بحدة لم يعتدها كريم من أبيه، فجلس الشاب مذعوراً، وحاول أن يبرر: "أبي، الأمر بسيط، سأرفعها، لا داعي للقلق". "لن يصبح الأمر بسيطاً إن لم نبدأ الآن"، قال يوهان، وجلس معه ساعة كاملة يراجع دفاتره، لا بغضب بل بذلك الانضباط الهادئ الذي ورثه هو نفسه عن أبيه، وشعر كريم، للمرة الأولى منذ أسابيع، أن أباه حاضر معه فعلًا، لا يراقبه من بعيد فحسب.

في مساء اليوم الرابع، حين نام كريم أخيراً بعد جرعة مسكّن خفيفة، مرّ يوهان بغرفته ليطفئ النور، فوقعت عيناه على فرشاة شعر كريم المعلقة فوق مرآة خزانته. وقف هناك دقيقة كاملة، يحدّق في الفرشاة كما لو كانت شيئاً غريباً هبط للتو من عالم آخر، قبل أن يمدّ يده، بحركة سريعة لا تشبه أي حركة قام بها من قبل في حياته، وينزع منها خصلات شعر قليلة عالقة فيها، ويلفّها بمنديل ورقي، ويضعها في جيب قميصه الداخلي وكأنها تحرق جلده من خلال القماش. أطفأ النور، وأغلق الباب بهدوء أشد من هدوئه المعتاد، وبقي واقفاً في الممر المظلم لحظات، يداه ترتجفان بخفة لم يلاحظها إلا حين حاول أن يضع يده في جيب بنطاله فلم تستقر.

قاد إلى المختبر في اليوم التالي في استراحة غدائه، بلا أن يخبر أحداً، متجنباً حتى مساعدته التي اعتادت أن تعرف كل تفصيلة في يومه. كان المكان

صغيراً، هادئاً، بإضاءة بيضاء باردة ورائحة كحول طبي خفيفة، وجلس أمام موظفة الاستقبال يملأ استمارة بخط يده الذي بدا له، حين نظر إليه بعد الانتهاء، أشبه بخط رجل آخر لا يعرفه: حروف متعثرة، مسافات غير منتظمة، كأن يده كانت تحاول أن تتباطأ عمداً لتمنحه فرصة أخيرة للتراجع. سلّم عيّنة الشعر، وعيّنة من فمه هو، ودفع رسوم الاستعجال ليصله الجواب خلال خمسة أيام بدل عشرة، وخرج إلى الشارع تحت شمس الظهيرة الحارقة وهو يشعر ببرودة غريبة تسري في جسده كله، وكأن جزءاً منه قد بقي هناك، في تلك الغرفة الباردة، ينتظر مع العيّنة نفسها.

اتصلت به سيلين وهو لا يزال واقفاً على الرصيف أمام المختبر، تسأله إن كان سيعود للعشاء أم سيتأخر في المكتب كعادة الأيام الأخيرة. أجابها إنه سيعود باكراً، وسمع في صوتها ارتياحاً حقيقياً جعله يشعر، للحظة، بذنب لم يستطع تفسيره لنفسه بالكامل: ذنب رجل يخطط لتفجير حياته بأكمله بينما تسأله زوجته، ببراءة تامة، عمّا إذا كان يفضل الدجاج أم السمك على العشاء.

عاد إلى مكتبه بعد المكالمة، وجلس خلف طاولته يحاول أن يستأنف يومه كما لو أن الساعة الأخيرة لم تحدث، لكنه وجد نفسه، بين توقيع مستند وآخر، يفكر في أن حياته بأكملها كانت تقوم على مبدأ واحد لم يشكّ فيه يوماً: أن المرء يرث يقينه كما يرث اسمه وبيته، دون أن يُطلب منه أن يبرهن عليه لأحد، ولا حتى لنفسه. والآن، كان يوهان يقف أمام سؤال لا يملك له إجابة موروثة، سؤال لا ينفع معه اسم العائلة ولا نفوذ المكتب في الطابق الثامن عشر: من هو، حين يُنزع منه اليقين الذي بُني عليه كل شيء آخر؟

لم يكن يعرف، وهو يبتعد بسيارته عن ذلك المبنى الصغير، أن الأسئلة التي تُطرح على الله عادة ما تكون أهون من الأسئلة التي نطرحها على

أنبوب اختبار؛ فالأول قد يرحمنا بصمته، أما الثاني فلا يعرف الرحمة على الإطلاق. خمسة أيام فقط تفصله عن ورقة صغيرة ستقرر، بلا رحمة ولا تردد، أي رجل سيصبح بعدها.

عاد إلى مكتبه ذلك المساء، وأغلق باب غرفته خلفه، وجلس خلف طاولته الواسعة يحدّق في الهاتف الصامت أمامه، خمسة أيام كاملة تفصله عن جواب سيغيّر كل شيء أو لا يغيّر شيئاً على الإطلاق. فتح تقويمه، ونظر إلى الأسبوع القادم المزدحم بالاجتماعات، وفكّر أنه سيمضي تلك الأيام الخمسة كما أمضى كل الأيام الأخيرة: مبتسماً في الاجتماعات، حانياً على ابنه، ودوداً مع صديقه، بينما يحمل في صدره سؤالًا واحداً لا يُشبه أي سؤال طرحه على نفسه من قبل. ولعل هذا بالضبط ما يفعله الانتظار بالرجال الذين تربّوا على ضبط النفس: لا يجعلهم أقل خوفاً، بل يجعلهم أكثر إتقاناً لإخفائه.

الفصل الرابع

الرقم

مرّت الأيام الخمسة كخمسة جدران متتالية، كل واحد منها أضيق من الذي قبله. لم ينم يوهان ليلة واحدة نوماً كاملًا، ولم يفلح في إنهاء اجتماع واحد دون أن يتوه ذهنه فجأة عن الأرقام المعروضة أمامه ليحطّ، بلا استئذان، على صورة واحدة متكررة: مغلّف أبيض، أو بريد إلكتروني، يحمل كلمة واحدة قد تقلب حياته كلها. حاول أن يعمل، أن يبتسم، أن يصافح، أن يكون الرجل الذي يعرفه الجميع؛ ونجح، في الظاهر، نجاحاً كاملًا لم يشكّ فيه أحد، لأن هذا، في النهاية، ما تدرّب عليه طوال حياته: أن يحمل عاصفة كاملة خلف وجه لا تهتز فيه عضلة واحدة.

في الليلة الثالثة من تلك الأيام الخمسة، جلس إلى العشاء مع سيلين وكريم كعادته، واستمع إلى كريم يروي قصة عن معلّم جديد بصوت مرح، وضحك في اللحظة الصحيحة، وسأل الأسئلة الصحيحة، وحين رفع كأسه ليشرب، لاحظ يده ترتجف بخفة لا تُلحظ إلا لمن يبحث عنها، فأنزل الكأس بسرعة، ووضع يده تحت الطاولة حيث لا يراها أحد. سألته سيلين، بابتسامة عابرة، إن كان بخير، فأجاب بأنه فقط "متعب من مشروع جديد في المكتب"، والجملة نفسها التي كررها عشرات المرّات في الأسابيع الأخيرة، حتى بدأت تخرج من فمه بسلاسة من اعتاد الكذب أكثر مما اعتاد الصدق.

في الليلة نفسها، وبعد أن نام الجميع، وقف يوهان طويلًا أمام مرآة الحمّام، ينظر إلى وجهه تحت الضوء القاسي، يبحث عن أي علامة خارجية توحي بما يعتمل بداخله، فلا يجد شيئاً. هذا الوجه نفسه الذي صافح به

شركاء أعمال هذا الصباح، الذي ابتسم به لابنه قبل قليل، لم يخنه بعلامة واحدة. فكّر، بمرارة هادئة، أن هذا بالضبط ما وُلد ليتقنه: أن يحمل كارثة كاملة خلف وجه لا يشي بشيء، مهارة توارثها كما توارث اسمه، دون أن يسأل نفسه يوماً إن كانت نعمة أم لعنة.

وفي اليوم الرابع، تناول غداء عمل مع اثنين من كبار شركائه في مطعم فاخر يطل على المرفأ، وتحدثوا عن توسّع محتمل في السوق الخليجي، وأومأ يوهان في اللحظات المناسبة، وطرح سؤالًا ذكياً جعل أحدهم يثني عليه بحماسة، لكنه، حين عاد إلى سيارته بعد الغداء، جلس خلف المقود دقيقتين كاملتين دون أن يشغّل المحرك، غير قادر على تذكّر كلمة واحدة مما قيل على تلك الطاولة قبل خمس دقائق فقط. كانت تلك، بالضبط، الحيلة التي أتقنها جسده دون علم عقله: أن يحضر بكامل أناقته في كل مكان، بينما يغيب هو، الرجل الحقيقي، في مكان آخر تماماً، عالق بين رقم مختبر لم يصله بعد وخوف لا اسم واضح له.

في صباح اليوم الخامس، بينما كان يوقّع على عقد لا يتذكر لاحقاً كلمة واحدة من بنوده، اهتزّ هاتفه على الطاولة برسالة بريد إلكتروني. رأى اسم المختبر يلمع على الشاشة، وشعر بيده تتجمد فوق القلم في منتصف توقيعه، فترك خطاً مائلًا غير مكتمل على الورقة، واعتذر لشركائه بصوت هادئ لم يعرف من أين استمدّ هدوءه، وخرج من قاعة الاجتماعات بخطوات منضبطة، وأغلق باب مكتبه خلفه، وأدار المفتاح مرتين.

وقف خلف طاولته، والهاتف بين يديه يزن أكثر من أي شيء حمله في حياته، وحدّق في الشاشة المطفأة دقيقة كاملة قبل أن يجرؤ على لمسها. ثم فتح الرسالة.

لم تكن هناك مقدمات، ولا عبارات تمهيدية تخفف الوقع، فالمختبرات لا تكتب بلغة القلوب. جدول أرقام، نسب مئوية، مصطلحات علمية جافة، وفي أسفل الصفحة، بخط واضح لا لبس فيه: "نسبة احتمال الأبوة البيولوجية: صفر بالمئة. تُستبعد الأبوة البيولوجية للعينة المرجعية المقدَّمة".

صفر!

جلس يوهان على كرسيه ببطء شديد، وكأن جسده قد تلقى الخبر قبل عقله بجزء من الثانية، فاختار أن ينهار أولًا، فَيْئاً بعدَ فَيْء، قبل أن يسمح للعقل باللحاق به. لم يصرخ. لم يكسر شيئاً. وضع الهاتف على الطاولة بحركة بطيئة زائدة عن الحاجة، كمن يخشى أن يكسر شيئاً أثمن من الجهاز نفسه، ثم أطبق كفّيه على وجهه، وبقي هكذا، بلا حركة، بلا صوت، لدقائق لم يحسبها، بينما كانت الشمس تتحرك ببطء عبر النافذة الواسعة خلفه، ترسم على الأرض ظلًا يطول ببطء كأنه هو الآخر يعرف أن شيئاً جوهرياً قد انتهى للتو في تلك الغرفة.

حين رفع رأسه أخيراً، لم يكن الرجل نفسه الذي أغلق الباب قبل قليل. كان وجهه هو الوجه ذاته، وملامحه هي الملامح ذاتها، لكن شيئاً خلف العينين قد انطفأ، أو ربما اشتعل، بطريقة لن يستطيع أحد ممن يعرفونه أن يسمّيها بدقة، لكنهم سيلاحظونها جميعاً، كل بطريقته، خلال الأسابيع القادمة.

نهض أخيراً، بحركة آلية، وغسل وجهه في الحمّام الملحق بمكتبه، وحدّق في المرآة طويلًا، والماء لا يزال يقطر من ذقنه، وشعر بشيء غريب يحدث في صدره: ليس ألماً بالمعنى المعتاد، بل فراغاً كاملًا، كأن شخصاً

ما قد فتح صنبوراً داخله وترك كل شيء يتسرب ببطء، الحب، والثقة، والسنوات الثماني عشرة كلها، حتى لم يبقَ سوى الصدى.

ولعل أقسى لحظة في حياة رجل ليست تلك التي تنهار فيها يقينياته، بل تلك التي يكتشف فيها أن الانهيار نفسه لم يُحدث ضجيجاً كافياً ليستحق أن يسمعه أحد.

لم يخبر مساعدته أنه سيغادر. ترك حقيبته، وسترته، وهاتفه المكتبي يرنّ بلا إجابة، ونزل الأدراج بدل المصعد، سبعة عشر طابقاً كاملًا، بخطى ثابتة متسارعة كأنه يهرب من شيء يلاحقه داخل ذلك المبنى نفسه. عبر الردهة الرخامية الواسعة دون أن يرد تحية حارس الاستقبال الذي عرفه منذ سنوات، ودون أن يشعر حتى بحرارة الشمس القاسية وهو يخرج إلى الشارع، وكأن جسده كله قد تحوّل، في تلك اللحظات، إلى آلة واحدة الغرض منها الوصول إلى مكان ما، أي مكان، بعيداً عن ذلك المكتب الذي شهد انهياره. قاد سيارته بلا وجهة محددة لعشرين دقيقة، مخترقاً إشارتين حمراوين دون أن ينتبه، حتى وجد نفسه، دون أن يقرر ذلك بوعي، يقف أمام عيادة كلير.

وقبل أن يطرق الباب، تسلّلت إلى أنفه لوهلةٍ خاطفة رائحةُ مطهراتٍ حادة، لا تشبه عبيرَ عيادة أخته المعتاد الممزوج بالبخور الخفيف، قبل أن تتوارى سريعاً، فلم يلتفت إليها وسط ثقل ما يحمله.

أطلّت عليه بنفسها، إذ كانت قد أنهت آخر مواعيدها لذلك اليوم، وابتسمت مرحّبة قبل أن تلمح وجهه، فتجمّدت الابتسامة على شفتيها.
"يوهان؟ ما بك؟"

لم يجِب. دخل، وأغلق الباب خلفه، ووقف في منتصف عيادتها الصغيرة الهادئة، بين رائحة المطهرات وصور الأطفال المعلقة على الجدران، رمزاً لكل الأمومة التي ساعدت في جلبها إلى العالم، وانهارت قوته.

لم يكن بكاءً هادئاً. كان انهياراً كاملًا، من ذلك النوع الذي يخجل منه الرجال الذين تربّوا على ألا يبكوا بصوت عالٍ، فخرج مشوّهاً، متقطعاً، أقرب إلى نوبة اختناق منه إلى دموع. جلس على الأرض، ظهره إلى الجدار، وركبتاه مرفوعتان إلى صدره، وكلير تجثو أمامه، تمسك بكتفيه، تكرر اسمه بصوت يعلو قلقاً مع كل ثانية تمر دون جواب.

"كريم ليس ابني!". قالها أخيراً، بصوت مبحوح مزّقته أسابيع من الكتمان. "فحصت الحمض النووي. صفر بالمئة. صفر، يا كلير". ارتجفت يداه وهو يخرج هاتفه من جيبه ليريها الرسالة، كأنه يحتاج أن يراها هي أيضاً لتصبح حقيقية بالكامل، لا مجرد كابوس يمكن أن يستيقظ منه.

اتسعت عينا كلير، وغطّت فمها بيدها، وجلست أمامه على الأرض، وأخذت هاتفه بيد ترتجف قليلًا، وقرأت الرسالة مرتين، ببطء، وكأنها تمنح نفسها وقتاً لتختار كل كلمة ستقولها بعد ذلك بعناية لا يلاحظها هو أبداً وسط انهياره.

"من؟" سألته أخيراً، بصوت خفيض. "من تظن؟"

لم يحتج يوهان لأن يقول الاسم. نظر إليها فقط، بعينين محمرّتين مثقلتين بأسابيع من الأرق، وكانت النظرة وحدها كافية. تنهدت كلير تنهيدة طويلة، وأفلتت يديه للحظة لتمسح دموعها هي الأخرى، ثم عادت واحتضنته بذراعيها، ووضعت رأسه على كتفها كما كانت تفعل حين كان طفلًا يبكي من كابوس.

"هل واجهتها؟" سألته. "هل واجهت سيلين؟" هزّ رأسه نافياً. "لا أستطيع. لا أعرف حتى من أين أبدأ. كيف أنظر في عينيها وأسألها كيف خانتني مع أعز أصدقائي لثماني عشرة سنة؟" ارتفع صوته قليلًا مع كل كلمة، حتى كاد يصرخ الجملة الأخيرة، فأمسكت كلير بوجهه بين كفّيها، وأجبرته على النظر إليها. "اسمعني جيداً. لا تتسرع بأي قرار الليلة. أياً كان ما ستفعله، افعله وأنت هادئ، لا وأنت محطّم هكذا." كانت الجملة حكيمة تماماً، حانية تماماً، ومع ذلك، حين أعاد يوهان سماعها لاحقاً في رأسه، لم يستطع أن يحدد لماذا شعر، بين كل ذلك الحنان، بأنها كانت أيضاً أول من طلب منه أن ينتظر.

بقي عند كلير حتى تجاوزت الساعة العاشرة، يروي لها، بصوت متهدج تارة وبارد تارة أخرى، كل ما جمعه طوال الأسابيع الماضية: الرائحة، الساعة، الكلمة التي قالها الطبيب في المستشفى، الجمل العابرة التي بدت بريئة والتي لم تعد كذلك في ذاكرته. استمعت كلير لكل كلمة بصمت، تومئ أحياناً، تربّت على يده أحياناً أخرى، ولم تقاطعه إلا مرة واحدة، حين قال إنه يفكر في مواجهة سيلين تلك الليلة نفسها.

أعدّت له كوباً من الشاي بالأعشاب لم يلمسه، وجلست إلى جانبه على الأريكة، وسألته أسئلة كثيرة، بصوت أخت قلقة تماماً: منذ متى بدأ يشك؟ هل أخبر أحداً غيرها؟ هل يظن أن سيلين تعرف أنه يعرف؟ أجاب عن كل سؤال بصدق كامل، مفرّغاً نفسه من كل ما احتفظ به وحيداً طوال أسابيع، بينما كانت كلير تستمع بانتباه من يبني، بصمت، خريطة كاملة لكل ما يعرفه هذا الرجل المنهار أمامها، ولكل ما لا يزال يجهله.

"وينال؟.. هل أخبرته بأي شيء؟" سألته فجأة، بنبرة عابرة وسط كل تلك الأسئلة الأخرى، وكأنها لا تزيد أهمية عن سؤالها عمّا تناوله على الغداء. أجاب بأنه بالطبع لم يخبره، أنه لم يخبر أحداً سواها، فأومأت برأسها بارتياح

واضح، وقالت: "جيد. دع الأمور تسير بهدوء. لا تدع أحداً يعرف أنك تعرف، ريثما تتضح الصورة كاملة." بدت النصيحة حكيمة تماماً، حذرة تماماً، ولم يخطر بباله، وهو يشكرها ويودّعها عند الباب بعد منتصف الليل، أن يسأل نفسه لماذا كانت كل نصائحها، رغم اختلاف صياغتها، تصبّ جميعها في اتجاه واحد فقط: أن يبقى صامتاً، وأن يبقى هو وحده من يعرف.

"لا يا يوهان." كانت نبرتها حازمة فجأة، أكثر حزماً من أي شيء سمعه منها من قبل. "إن واجهتها الآن، وأنت في هذه الحالة، ستقول أشياء لا يمكن سحبها لاحقاً، وستفقد كل قدرة على السيطرة على ما يحدث بعدها. فكّر جيداً. اجمع نفسك أولًا. ثم تحرّك". نظر إليها يوهان طويلًا، ورأى في عينيها شيئاً ظنّه حينها حكمة أخت أكبر لا تريد لأخيها أن يدمّر نفسه بيديه.

عاد إلى بيته تلك الليلة متأخراً، ووجد سيلين نائمة، وكريم في غرفته يتصفح هاتفه، وكل شيء في مكانه المعتاد تماماً، وكأن العالم لم يسمع بعد بالخبر الذي يحمله يوهان في صدره كصخرة. وقف عند باب غرفة النوم طويلًا، يراقب زوجته النائمة، أنفاسها الهادئة المنتظمة، وشعر بشيء يتصلب بداخله، بطيئاً لكنه لا رجعة فيه، كالإسمنت الذي يتحول من سائل إلى صخر دون أن يعلن عن اللحظة التي يحدث فيها ذلك بالضبط.

لم يدخل الغرفة تلك الليلة. نام على أريكة مكتبه، بملابسه، تحت بطانية صوفية قديمة كان قد نسي أنها هناك، وحين استيقظ في الصباح، كان قد اتخذ قراراً لم يعد بحاجة لأن يفكر فيه مجدداً: لن يواجه أحداً. لن يبكِ مرّة أخرى أمام أحد. سيصبح، بدءاً من تلك اللحظة، رجلًا آخر تماماً، رجلًا لا يخسر شيئاً لأنه لا يمنح أحداً فرصة أن يرى ما بداخله.

مرّ بغرفة كريم في طريقه إلى الحمّام ذلك الصباح، فوجده لا يزال نائماً، ذراعه ملقاة خارج البطانية، وجهه هادئاً بذلك الهدوء الذي لا يملكه إلا من لا يعرف بعد أن العالم قادر على الخيانة. وقف عند الباب طويلًا، يراقبه، ويفكر في أن هذا الشاب النائم، بغض النظر عمّن يجري في عروقه من دم، هو ابنه بكل معنى الكلمة التي تستحق أن تُقال، وأن أحداً، مهما فعل، لن يأخذ منه هذا اليقين الوحيد الذي بقي صامداً وسط كل ما انهار. أغلق الباب بهدوء، وترك الشاب نائماً، غير مدرك أن أباه واقف هناك يعيد بناء نفسه، حجراً بعد حجر، على أنقاض الرجل الذي كانه قبل أسبوع واحد فقط.

مرّ الأسبوع التالي بسرعة أفزعته هو نفسه. تحوّل يوهان، أمام الجميع، إلى نسخة أكثر هدوءاً وكفاءة من نفسه القديمة، رجل أنجز في أيام قليلة ما كان يستغرق منه أسابيع، رجل ابتسامته أثبت، وقراراته أسرع، وصوته لا يرتفع أبداً مهما اشتدت الأزمة. لاحظت مساعدته التغيير، وعلّقت عليه بإعجاب: "أصبحت أكثر تركيزاً هذه الأيام يا سيدي". لم يخبرها أن ذلك التركيز لم يكن انضباطاً مكتسباً، بل غرفة داخلية أغلق بابها على كل ما يشعر به، وقرر ألا يفتحها أمام أحد مرة أخرى.

لاحظ كريم أيضاً، بحاسة المراهقين التي تلتقط التغيرات الصغيرة قبل أن يلتقطها الكبار أنفسهم، أن أباه أصبح أقل حضوراً على نحو غريب رغم أنه بات يعود إلى البيت في الموعد نفسه كل مساء. دخل غرفة مكتبه ذات ليلة ليطلب توقيعاً على ورقة مدرسية، فوجده يحدّق في الفراغ أمامه، هاتفه في يده مطفأ، وعيناه لا تركزان على شيء محدد. "بابا، هل أنت بخير؟" سأله بقلق طفولي لم يتخلَّ عنه رغم ثمانية عشر عاماً. ابتسم يوهان، ابتسامة سريعة مصنوعة بإتقان، ووقّع الورقة دون أن يقرأها،

وقال إنه بخير تماماً، فقط "يفكر في شيء يخص العمل". صدّقه كريم، كما صدّقه الجميع، لأن يوهان لم يمنح أحداً سبباً واحداً كافياً للشك.

بدأ يجمع، بصمت وصبر لا يعرفه إلا من درّبه عليه أبوه، كل معلومة ممكنة عن مشروع ينال التجاري الجديد، استثمار عقاري صغير كان ينال فخوراً به أكثر من أي إنجاز آخر في حياته. طلب يوهان من محامٍ يثق به، بصفة غير رسمية تماماً، مراجعة كل عقد وقّعه ينال في السنتين الأخيرتين، بحثاً عن ثغرة واحدة، مادة واحدة، مورّداً واحداً يمكن الضغط عليه بهدوء دون أن يترك أثراً يدينه.

استغرق الأمر يومين ليجمع كل ما يحتاجه: كشوف حسابات علنية استخرجها بذريعة "تدقيق روتيني" عبر شركة استشارية يتعامل معها منذ سنوات، وسجلات ملكية عقارية بحث عنها بنفسه في سجلات الدولة الإلكترونية بعد منتصف الليل حين تنام سيلين، وأسماء موردين اتصل بهم أحد مساعديه دون أن يعرف لصالح من يعمل بالضبط. كان يوهان يفعل كل ذلك بيدين لا ترتجفان، وعقل بارد لا يعرف الرحمة، وشعر، وهو يراكم تلك المعلومات ملفاً بعد ملف على حاسوبه الشخصي، بأنه يبني شيئاً لأول مرة منذ أسابيع، بدل أن يشاهد شيئاً ينهار من تحت قدميه بلا حول له ولا قوة.

لم يكن ذلك انتقاماً بالمعنى الذي يتخيله الناس عادة، بصراخ أو تهديد أو مواجهة علنية؛ كان أقرب إلى عملية جراحية باردة، دقيقة، بلا ألم ظاهر، من النوع الذي يمارسه رجال طبقته منذ أجيال حين يريدون تدمير شيء دون أن تتسخ أيديهم بالدماء. فالانتقام الحقيقي، كما تعلّم يوهان دون أن يعلّمه إياه أحد بصراحة، لا يُصرخ به، بل يُوقَّع عليه، بهدوء، في اجتماع لا يحضره سوى المحامين.

استقبل المحامي في مكتبه مساء الثلاثاء، رجلًا ستينياً أنيقاً عمل مع عائلة يوهان منذ أيام والده، وجلس أمامه يستمع إلى ملخص الثغرات التي وجدها في عقود ينال، بوجه لا يعبّر عن شيء، بينما كان المحامي يشرح، بحماسة مهنية باردة، كيف يمكن استغلال بند إيجار غامض لإنهاء العقد الرئيسي "دون أن يتمكن أي طرف من إثبات سوء نية". سأله يوهان سؤالًا واحداً فقط: "هل سيعرف أحد أنني وراء هذا؟" فأجابه المحامي، بابتسامة رجل يعرف حدود مهنته جيداً: "لا، إن سارت الأمور كما رسمناها. الشركة الوسيطة التي سنستخدمها لا تحمل اسمك في أي مكان." أومأ يوهان برأسه، وأمضى التعليمات النهائية بقلمه الخاص، بخط ثابت لا يشبه إطلاقاً ذلك الخط المتعثر الذي كتب به استمارة المختبر قبل أسبوعين فقط.

في مساء الخميس، اتصل به المحامي أخيراً، بصوت يحمل رضا الرجل الذي وجد ما كان يبحث عنه. "وجدنا شيئاً يا سيد يوهان. عقد إيجار المستودع الرئيسي للمشروع موقّع باسم شركة وسيطة، وهناك بند صغير يمكن استغلاله لإلغاء العقد بأثر رجعي، إن تحركنا بسرعة". استمع يوهان للتفاصيل كاملة، بهدوء رجل يستمع إلى تقرير طقس، وحين انتهت المكالمة، جلس وحده في مكتبه المظلم، ونظر إلى المدينة الممتدة خلف زجاجه العريض، وابتسم ابتسامة لم يرها أحد، ابتسامة رجل بدأ للتو يتذوق أول طعم حقيقي للسيطرة منذ أسابيع طويلة من فقدانها بالكامل.

"تحرّك"، قال للمحامي أخيراً، بصوت لا يتردد فيه شيء. "بأسرع وقت ممكن".

جاء الاتصال من ينال بعد ثلاثة أيام، ظهراً، ويوهان في مكتبه. لم يكن الصوت مرحاً كعادته، بل مرتبكاً، مصدوماً، يحمل نبرة رجل استيقظ فجأة ليجد الأرض قد انفتحت تحت قدميه. "يوهان، هل سمعت؟ المستودع،

ألغوا العقد فجأة، بلا سابق إنذار، يقولون إن هناك بنداً قانونياً استُغل ضدّي. قد أخسر كل شيء استثمرته، هل تصدّق هذا؟" استمع يوهان بهدوء تام، وسأله بصوت حريص أن يبدو مهتماً بالقدر المناسب تماماً، لا أكثر ولا أقل: "من فعل هذا؟ هل تعرف؟" فأجاب ينال، بحيرة صادقة لا تشوبها شبهة واحدة تجاه صديقه: "لا فكرة عندي. عالم الأعمال قاسٍ أحياناً، يوهان، هذه الأشياء تحدث". شكره يوهان على إخباره، وعرض عليه، بصوت يخلو من أي أثر للمتعة الباردة التي كانت تسري في عروقه في تلك اللحظة بالذات، أن "يسأل بعض معارفه إن كان بإمكانهم المساعدة".

أغلق الخط، ونظر إلى يديه على الطاولة، هادئتين تماماً، لا ترتجفان كما ارتجفتا قبل أسابيع قليلة أمام فرشاة شعر ابنه، وفكّر أن هذا، بالتحديد، ما كان يفتقده طوال حياته دون أن يعرف: ليس السعادة، بل السيطرة، ذلك الشعور النظيف بأن يداً واحدة، يده هو، يمكنها أن تحرّك خيوط العالم من خلف الستار دون أن يلمسها أحد.

جاء ينال إلى مكتبه بعد يومين، بلا موعد مسبق، ووجهه يحمل إرهاق رجل لم ينم جيداً منذ أن وصلته الأخبار. جلس أمام يوهان، وطلب مشورته كصديق، لا كرجل أعمال فقط، وشرح له كيف يحاول محاموه إيجاد مخرج، وكيف بدأ يقلق من الخسارة المالية، وكيف يشعر هو، شخصياً، بأن أحداً يستهدفه عمداً دون أن يعرف من. استمع يوهان بوجه متعاطف تماماً، أومأ في اللحظات المناسبة، وقال له إنه "سيسأل من يعرفهم في هذا المجال"، وحين غادر ينال أخيراً، بعد أن عانقه عند الباب شاكراً له وقته، وقف يوهان عند نافذته الواسعة، يراقب سيارة صديقه تبتعد في الشارع تحته، وشعر بشيء أقرب إلى المتعة الهادئة، متعة الصياد الذي يراقب فريسته تتخبط في شرك لم تكتشف بعد أنه من نسج يده هو.

لاحظت سيلين، في تلك الأمسية، أن زوجها قد تغيّر بطريقة لا تستطيع تسميتها بدقة. جلست إلى جانبه في الصالة، ووضعت يدها على ذراعه، وسألته: "يوهان، أنت بعيد عني منذ أسابيع. هل فعلت شيئاً أزعجك؟" رفع نظره إليها، بعينين باردتين لم تعرفهما من قبل، وقال، بصوت مهذب تماماً لا يحمل أي دفء: "لا شيء. أنا فقط منشغل بالعمل." لم تصدقه تماماً، وشعرت بشيء يشبه البرد يسري في المكان الذي كانت تجلس فيه، لكنها لم تعرف كيف تسأل سؤالًا لا تملك حتى شكله بعد، فانسحبت، ببطء، تاركة إياه وحده مع صمته الجديد الذي بدأ يملأ البيت كله، غرفة بعد غرفة، كضباب لا يُرى لكنه يُستنشق في كل مكان.

حاولت بعد أيام قليلة، بطريقة مختلفة هذه المرة: حجزت لهما عشاءً في المطعم الذي تناولا فيه أول موعد بينهما منذ عشرين عاماً، وارتدت الفستان الذي يحبه، وانتظرته عند الطاولة عشر دقائق قبل أن يصل متأخراً بعذر عمل لم تسأل عن تفاصيله. تحدثت طوال العشاء عن ذكريات قديمة، تحاول أن تستدرج منه ابتسامة حقيقية واحدة، بينما كان هو يجيب بأدب، يبتسم في اللحظة المناسبة، ويصفّق داخلياً لأدائه الخاص كما يصفّق جمهور لممثل بارع، بينما كان قلبه، في مكان آخر تماماً، يحصي أخطاء ينال القانونية ويحسب متى ستصله الضربة التالية. عادا إلى البيت في صمت، وقبّل جبينها عند الباب كعادته، وشعرت سيلين، وهي تراقبه يصعد الدرج أمامها، أنها قبّلت للتو رجلًا تعرفه جيداً، لكنه لم يعد بالكامل الرجل الذي تزوجته.

بقي يوهان جالساً في العتمة، يستمع إلى صمت المكتب من حوله، ويفكر في أن الرجل الذي كان يبكي على أرضية عيادة أخته قبل أسبوع واحد فقط قد مات في تلك الليلة، ودُفن بهدوء، دون جنازة، ودون أن يبكيه أحد، ليحل محله رجل آخر، أكثر برودة، أكثر صبراً، وأخطر بما لا يقاس.

فبعض الرجال لا ينهارون مرتين؛ في المرة الأولى يتعلمون أن العالم قادر على خيانتهم، وفي المرة الثانية، إن سمحوا لأنفسهم بها، يكتشفون أنهم لم يعودوا يهتمون بما يكفي ليتألموا من جديد.

الفصل الخامس

بلا نقاش

مرّت ثلاثة أسابيع، انهارت خلالها ركائز مشروع ينال العقاري واحدة تلو الأخرى، بصمت يبدو، من الخارج، وكأنه سلسلة من سوء الحظ: مستثمر انسحب فجأة دون تفسير مقنع، مورّد رئيسي ألغى عقده بحجة "إعادة هيكلة داخلية"، ورخصة بناء تعثرت في دوائر البلدية لأسباب بيروقراطية غامضة لم يفهمها أحد، وأخيراً، بنك كان قد وافق مبدئياً على تمويل المرحلة الثانية من المشروع، سحب موافقته في اللحظة الأخيرة "بعد مراجعة داخلية للمخاطر" لم يشرحها أحد لينال بوضوح كافٍ. لم يكن ينال، بذكائه المعتاد، يظن يوماً أن هذه الحوادث المتفرقة قد تكون خيوطاً تُسحب جميعها من يد واحدة؛ فبعض المؤامرات لا تُكتشف لأنها بارعة، بل لأن ضحاياها لا يتخيلون أن أحداً يحبونه قادر على نسجها من الأساس.

اتصل ينال بيوهان مرتين في ذلك الأسبوع، لا ليطلب مساعدة مباشرة، بل ليتحدث فقط، بصوت رجل يبحث عن أذن صديق أكثر مما يبحث عن حل عملي. في المرة الثانية، دعاه يوهان لتناول القهوة في مكتبه، وجلس يستمع إليه يروي، بإرهاق واضح في عينيه، كيف بدأ يشك في "نحس" يلاحقه فجأة بعد سنوات من النجاح المتتالي. استمع يوهان بوجه متعاطف مصقول بعناية، وقال له، بنبرة الصديق الحكيم: "الأزمات تمرّ يا ينال. ما بُني بجهد حقيقي لا يسقط بسهولة". لم يكذب في الجملة الأخيرة؛ فما بناه ينال بجهده الحقيقي لم يكن هو ما سيسقطه، بل شيء آخر تماماً، ينتظر بصبر في ملف إلكتروني مغلق على حاسوب لا يعرف ينال بوجوده أصلًا.

لاحظ يوهان، بينما كان صديقه يتحدث، تفصيلة صغيرة أثارت فيه شعوراً لم يستطع تسميته بدقة: يد ينال ترتجف قليلًا وهي تحمل كوب القهوة، ارتجافاً لم يعرفه في هذا الرجل من قبل، الرجل الذي عرفه دائماً واثقاً مرحاً لا يهتز أمام أي عاصفة. لثانية واحدة، تسلل إلى صدر يوهان شيء أشبه بالشفقة الحقيقية، سرعان ما طرده بيد أخرى، أبرد وأكثر إصراراً، ذكّرته بأن هذه اليد المرتجفة نفسها كانت، منذ مدّة، تحمل ساعة نسيها في سرير ليس سريرها.

في تلك الأثناء، كان كريم يحضّر، بحماسة لم يخفِها عن أحد، لمحادثة يريدها أن تكون "رسمية" مع والديه: قرر أخيراً تخصصه الجامعي. طلب من سيلين أن تُعدّ عشاء خاصاً مساء الجمعة، ودعا جوري لتناول الحلوى معهم بعد العشاء "لأنها جزء من القصة أيضاً"، على حد تعبيره الخجول، وقضى يومين كاملين يعدّ عرضاً صغيراً على هاتفه يضم صوراً التقطها بنفسه على مدى سنتين: بورتريهات لجدّته قبل وفاتها، مشاهد من الشارع القديم قرب المدرسة، لقطة لسيلين وهي تضحك في المطبخ لم تكن تعلم أنه التقطها. صور عديدة لوالده وصوراً أخرى إلتقتها لينال أيضاً أثناء نشاطاتهما المشتركة، كان يريد أن يقول، بطريقته الخاصة، إنه اختار التصوير والإعلام المرئي تخصصاً جامعياً، وإنه يريد أن يدرسه في الجامعة المحلية نفسها التي سيلتحق بها أصدقاؤه أيضاً، قريباً من البيت، قريباً من جوري، قريباً من كل شيء يعرفه.

لم تكن هذه هواية عابرة بالنسبة إليه؛ فمنذ أن أهداه جدّه تلك الكاميرا القديمة قبل سنوات، كان كريم يحمل معه، في كل رحلة مدرسية وكل نزهة عائلية، عيناً ثالثة تلتقط ما لا يلتقطه أحد آخر: تجعيدة قلق عابرة على وجه أمه، ضوءاً غريباً يسقط على درج المنزل عند الغروب، لحظة صمت بين رجلين يتصافحان في اجتماع عمل رافق فيه أباه مرة. كان قد فاز، قبل

أشهر قليلة، بمسابقة تصوير مدرسية صغيرة، وعلّق أستاذ الفنون على عمله بأنه "يمتلك عيناً نادرة لا تُعلَّم، بل تُولَد". احتفظ كريم بتلك الجملة في مكان ما من ذاكرته كأثمن ما قيل له في حياته، وكان يخطط، تلك الليلة بالذات، أن يرويها لأبيه كدليل على جدّيته، قبل أن يُقاطَع إلى الأبد .

طبخت سيلين تلك الليلة طبق كريم المفضل منذ الطفولة، وزيّنت الطاولة بشموع صغيرة "احتفالًا بقراره الكبير" كما قالت وهي تقبّل رأسه، غير مدركة أنها تحتفل بلحظة ستُمحى تماماً خلال أقل من نصف ساعة. جلس يوهان في مكانه المعتاد، صامتاً أكثر من العادة، يقلّب الطعام في طبقه دون أن يأكل منه كثيراً.

جلسوا إلى العشاء، وكان كريم يرتدي قميصاً جديداً اشتراه خصيصاً لتلك الليلة، ووجهه يشعّ بذلك التوتر السعيد الذي يعرفه كل من ينتظر أن يشارك حلماً صاغه بنفسه للمرة الأولى. انتظر حتى انتهى الجميع من الطبق الرئيسي، ثم أخرج هاتفه، وقال، بصوت يرتجف قليلًا من الحماسة: "أمي، أبي، عندي شيء أريد أن أخبركما به. فكرت كثيراً، وأنا متأكد تماماً من قراري".

لم يمهله يوهان فرصة إكمال الجملة. وضع شوكته على الطاولة بحركة هادئة محسوبة، ونظر إلى ابنه بابتسامة لم تصل إلى عينيه، وقال: "قبل أن تتحدث، عندي أنا أيضاً خبر لكما". ساد صمت قصير، ونظرت سيلين إلى زوجها بحيرة، فتابع يوهان، بنبرة رجل يعلن قراراً لا نقاش فيه: "سجّلت كريم في جامعة في لندن. القبول مؤكد، والسكن الجامعي محجوز، وسيبدأ الدراسة في تخصص إدارة الأعمال مطلع الفصل القادم".

وقع الصمت على الطاولة كصفعة. حدّق كريم إلى أبيه، هاتفه لا يزال في يده، الشاشة مضاءة بمجموعة الصور التي كان يريد أن يعرضها قبل

ثوانٍ، وشعر بشيء يتجمد في صدره، ببطء، كأن كل الكلمات التي أعدّها طوال يومين قد تبخّرت دفعة واحدة، تاركة خلفها فراغاً لا يعرف كيف يملؤه.

نظرت جوري بينهما، مرتبكة، غير متأكدة إن كان عليها أن تتكلم أو تصمت، بينما كانت الشموع الصغيرة التي أشعلتها سيلين قبل قليل لا تزال تحترق بلا مبالاة، تضيء وجوهاً ثلاثة انقلبت ملامحها في ثوانٍ معدودة من فرح منتظر إلى ذهول لا اسم له. ولمعت تلك الشموع، لوهلةٍ غريبة، بوهجٍ أبيضَ حادٍّ لا يشبه دفءَ لهبها المعتاد، أشبه بضوءِ مصباحٍ جراحيٍّ معلّقٍ فوق رأس يوهان مباشرة، قبل أن يعود اللهب إلى ارتعاشه البرتقاليّ الهادئ كأن شيئاً لم يكن.

"لندن؟" كان صوت سيلين هو أول ما كسر الصمت، مرتجفاً، غير مصدّق. "إدارة أعمال؟ يوهان، متى قررت هذا؟ لماذا لم تخبرني؟" لم يجب يوهان مباشرة، بل التفت نحو كريم، وقال، بنبرة أقرب إلى إعلان نتيجة نهائية منها إلى بداية حوار: "قرار كهذا يحتاج إلى رؤية بعيدة المدى، لا إلى نقاش عاطفي. تخصص إدارة الأعمال سيؤهلك لإدارة إرث هذه العائلة يوماً ما، وجامعة بهذا المستوى ستفتح لك أبواباً لن تفتحها أي جامعة محلية مهما بلغت سمعتها". تحدّث بثقة رجل يقرأ من نص أعدّه سلفاً، لا برجل يستجيب لصدمة الآخرين أمامه.

لم يكن يوهان، في تلك اللحظة، يكذب على نفسه بقدر ما كان يعيد إنتاج ما وُلد يعرفه دون أن يسأل نفسه يوماً من أين أتى: أن الأبناء لا يُربَّون ليكونوا أنفسهم، بل ليواصلوا الاسم، أن الشغف شيء جميل يُترك لأبناء العائلات الأقل حظاً، أما أبناء العائلات التي بنت شيئاً يستحق أن يُورَّث، فمهمتهم أن يحملوا ذلك الشيء إلى الجيل التالي، لا أن يذوبوا في هواية تبدأ بكاميرا وتنتهي، في أفضل الأحوال، بمعرض صغير لا يغيّر شيئاً في

ميزان العالم الحقيقي. لم يكن يوهان قد اختار هذا الاعتقاد يوماً بوعي كامل؛ كان قد وُلد فيه، كما وُلد في اسمه وبيته، وها هو الآن يمرّره لابنه بالطريقة نفسها التي وُرّث بها إليه: بلا تفسير، وبلا مجال للرفض.

"لكنه أخبرنا للتو أنه يريد أن يتحدث معنا عن شيء يخصه!" قالت سيلين، وقد بدأت الدموع تلمع في عينيها. "ألا يستحق أن نستمع إليه أولًا؟" نظر يوهان إليها نظرة باردة قصيرة، وقال: "استمعت إليه طوال ثماني عشرة سنة يا سيلين. هذا قرار أب يعرف مصلحة ابنه". ارتفع صوتها قليلًا، وهي تمسح دمعة بغضب أكثر منه بحزن: "كيف تسجّل ابنك في جامعة في الخارج، في اختصاص أنت من اخترعه، دون أن تُعلم أحداً، ودون أن تناقش الأمر ولو مرة واحدة مع كريم نفسه؟"

صمت يوهان للحظة، ونظر إليها نظرة طويلة باردة، ثم قال، بصوت لم يرتفع ولم يهتز، بل خرج حاداً كشفرة مصقولة: "أنتِ قلتِها للتو: 'ابنك'. وهذا يعني أنني أعرف مصلحته أكثر من أي شخص آخر على هذه الطاولة. لا أريد نقاشاً في الموضوع". كانت الجملة قصيرة، جافة، لكنها حملت وزناً أثقل من أي صراخ ممكن، وشعرت سيلين، للحظة، أنها تجلس أمام رجل لا تعرفه، رجل استعار وجه زوجها لكنه فقد شيئاً جوهرياً كان يسكن خلف تلك الملامح طوال عشرين عاماً.

حاولت سيلين أن تقول شيئاً آخر، أن تجد ثغرة في جداره الجديد، لكنها لم تجد شيئاً؛ فالرجل الذي كان يستمع إليها دائماً، حتى حين يختلف معها، قد اختفى تماماً، ليحل محله شخص يتحدث بلغة القرارات النهائية وحدها، لا لغة الحوار التي عرفتها فيه طوال عشرين عاماً من الزواج.

نهض كريم من مكانه دون أن يقول كلمة، وصعد إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه بهدوء غريب، أثقل من أي صفقة بابٍ بعنف؛ فالصمت، حين

يخرج من فم شاب في الثامنة عشرة اعتاد أن يعبّر عن كل شيء بصوت عالٍ، أخطر من أي صراخ. جلست جوري في مكانها لدقيقة، محرجة، غير متأكدة إن كان عليها البقاء أو الانسحاب، ثم اعتذرت بصوت خافت وغادرت، تاركة خلفها صندوق حلوى لم يُفتح على الطاولة.

جلس كريم على حافة سريره، هاتفه في يده، الصور نفسها لا تزال مضاءة على الشاشة، وحدّق فيها طويلًا دون أن يراها فعلًا. فكّر في جوري، في ابتسامتها على الرمل قبل أسابيع، في الوعد الذي قطعه لنفسه بأن يخبرها قريباً بمشاعره الحقيقية؛ وفكّر في الكاميرا القديمة التي أهداه إياها جدّه، في كل صورة التقطها يحلم بأن يوماً ما سيصنع منها مهنة كاملة؛ وفكّر، أخيراً، في أبيه، ذلك الرجل الذي جلس أمامه قبل قليل يعلن مصيره وكأنه يوقّع عقداً تجارياً، بلا سؤال واحد، بلا لحظة تردد واحدة. وسأل نفسه، للمرة الأولى في حياته بهذا الوضوح القاسي: من هو هذا الرجل حقاً؟ هل هذا أبي فعلًا، أم أن أبي الذي أعرفه اختفى في مكان ما دون أن يخبرني أحد؟

لم يكن كريم يعرف، وهو يبكي بصمت في عتمة غرفته تلك الليلة، أن السؤال الذي طرحه على نفسه بمرارة مجازية كان، في الحقيقة، أدق سؤال طرحه أي فرد من هذه العائلة منذ أسابيع طويلة؛ فبعض الأسئلة تولد صحيحة تماماً حتى وهي تُطرح بمعنى مختلف كلياً عمّا تحمله فعلًا.

اتصل بجوري قرابة منتصف الليل، بصوت متهدج حاول أن يخفيه دون جدوى، وأخبرها بكل شيء: لندن، إدارة الأعمال، الرحيل الذي بات موعده أقرب مما تخيّل أي منهما يوماً. صمتت جوري طويلًا في الطرف الآخر من الخط، ثم قالت، بصوت هادئ حزين حاول أن يبدو قوياً: "كنا بالكاد بدأنا يا كريم". أجابها إنه يعرف، إنه لا يريد الرحيل، إنه سيحاول أن يقنع أباه، لكنه سمع في صوت نفسه، وهو يقولها، ذلك اليقين المرّ بأن الإقناع لم يعد

خياراً متاحاً مع رجل لا يفتح باب النقاش من الأساس. "سأنتظرك"، قالت جوري أخيراً، بشجاعة من لا تعرف بعد كم تكلّف مثل هذه الوعود، ولم يجرؤ كريم على أن يخبرها أنه، في تلك اللحظة بالذات، لم يعد متأكداً من أي شيء في حياته، ولا حتى من الرجل الذي كان يظن أنه يعرفه أكثر من أي إنسان آخر على وجه الأرض.

في الصباح التالي، حاولت سيلين مرة أخرى، بصوت أكثر هدوءاً، أن تفهم دوافع زوجها، فوجدته يحزم حقيبته للعمل بحركات سريعة منضبطة، وكأن ليلة أمس لم تحدث. "يوهان، أرجوك، فكّر في الأمر أكثر. كريم يحب التصوير، يحبه بصدق، أليس من حقه أن يجرّب؟" توقف يوهان لحظة، ونظر إليها، وقال جملة لن تنساها سيلين طويلًا: "الحب وحده لا يبني مستقبلًا يا سيلين. أنا أعرف هذا العالم أفضل من أي شخص هنا، وأعرف أي الأبواب تُفتح وأيها تبقى موصدة أمام من يختار العاطفة على الحكمة". غادر البيت دون أن ينتظر ردها، تاركاً خلفه امرأة تقف في منتصف المطبخ، تشعر، للمرة الأولى منذ عشرين عاماً، أنها لا تعرف الرجل الذي تشاركه حياتها بقدر ما ظنت.

انتظر كريم أباه عند سيارته في المرآب ذلك المساء، وقد قرر ألا يترك الأمر يمرّ دون مواجهة واحدة على الأقل، وجهاً لوجه، بلا وسيط. "أبي، أحتاج أن أفهم. لماذا؟ لماذا إدارة أعمال؟ لماذا لندن؟ لماذا لم تسألني رأيي ولو مرة؟" وقف يوهان أمامه، مفاتيح السيارة في يده، ونظر إلى ابنه نظرة طويلة لم يستطع كريم قراءتها بالكامل، مزيجاً غريباً من الحزم والشيء الآخر الذي لم يعرف كريم اسمه بعد. "لأنني أرى أبعد مما تراه أنت الآن يا كريم. التصوير هواية جميلة، ستبقى هواية جميلة، مثل الغولف بالنسبة لي، لكنها لن تحميك حين تحتاج إلى حماية حقيقية في هذا العالم". "وأنت من يقرر ما أحتاجه؟" ارتفع صوت كريم للمرة الثانية في

حياته أمام أبيه. "نعم،" أجاب يوهان ببساطة قاطعة لم تترك مجالًا لأي كلمة أخرى، "لأنني أبوك". فتح باب سيارته ودخلها، تاركاً كريم واقفاً وحده في المرآب البارد، يشعر بتلك الكلمة الأخيرة، "أبوك"، تتردد في أذنيه بثقل لم تحمله من قبل، وكأن يوهان نفسه كان يستخدمها كسلاح لا كحقيقة.

جلس يوهان خلف مقود سيارته دقيقتين طويلتين قبل أن يشغّل المحرك، ينظر إلى ابنه في المرآة الخلفية يبتعد نحو باب البيت بكتفين منحنيتين لم يعرفهما فيه من قبل. لثانية واحدة، هزّه شعور أشبه بالندم، سؤال صغير حاول أن يتسلل: هل كان قاسياً أكثر مما ينبغي؟ لكنه طرد الفكرة بالسرعة نفسها التي جاءت بها، وذكّر نفسه أن الرجال الذين يتراجعون عن قراراتهم بدافع دمعة أو نظرة حزينة هم أنفسهم الرجال الذين تُبنى ممالكهم على الرمل. لم يكن يعرف أن هذا المنطق بالذات، ذلك الذي ورثه عن أبيه دون مساءلة، هو نفسه الذي كان يهدم، حجراً بحجر، العلاقة الوحيدة في حياته التي لم تكن، حتى تلك اللحظة، بحاجة إلى دفاع.

مرّت كلير في اليوم التالي، وقد سمعت الخبر من سيلين عبر الهاتف، وجلست مع كريم قليلًا في الحديقة الخلفية، تحاول أن تخفف من وطأة الصدمة بحديث أخوي دافئ. "أعرف أن الأمر صعب الآن"، قالت له، وهي تربّت على يده، "لكن أباك رجل يرى أبعد من كثيرين. ثق أن كل ما يفعله، مهما بدا قاسياً، إنما يفعله من موقع محبته لك". أومأ كريم برأسه بأدب، غير مقتنع لكنه غير قادر على الجدال، ولم يخطر بباله أن يسأل نفسه لماذا كانت عمّته، في كل أزمة تمرّ بهذا البيت، أول من يظهر ليقول للجميع إن كل شيء يحدث لسبب وجيه، وإن الصبر هو الحل الوحيد المتاح دائماً.

في مكتبه ذلك الصباح، تلقى يوهان اتصالًا من محاميه، بصوت يحمل حماسة مختلفة هذه المرة، أعمق من مجرد رضا الصفقة الناجحة. "سيد يوهان، أثناء مراجعتنا لسجلات الشركة الوسيطة التي استخدمها السيد ينال في تمويل مشروعه، وجدنا شيئاً... أكبر مما كنا نبحث عنه." توقف المحامي للحظة، كمن يزن كلماته قبل أن يواصل: "استخدم ينال قطعة أرض كضمان عقاري للحصول على قرض كبير من بنك خاص، لكن سجلات الملكية الرسمية تُظهر أن تلك الأرض لا تزال، قانونياً، مسجّلة باسم شراكة عائلية قديمة لم يحصل ينال على موافقة خطية كاملة من جميع الشركاء فيها لرهنها. بمعنى آخر، رهن أصلًا لا يملكه وحده، وقدّم للبنك أوراقاً تصف ملكيته بأنها كاملة وخالصة، وهي ليست كذلك."

أنصت يوهان بصمت مطبق، وشعر بشيء يشبه البرد يسري في يديه، لا خوفاً، بل ذلك النوع من الهدوء الذي يعقب اكتشافاً مهماً جداً لدرجة أن الجسد يتوقف عن أي رد فعل عاطفي فوري ليعطي العقل مساحة كاملة للتفكير. "هل هذا يكفي لتوجيه اتهام جنائي؟" سأل أخيراً، بصوت لا يحمل أي انفعال. أجاب المحامي، بحذر مهني: "يكفي لفتح تحقيق، على الأقل. إن قدّم أحد شكوى رسمية، مدعوماً بهذه الأوراق، فقد يواجه السيد ينال تهمة احتيال مالي، وقد تصل العقوبة، إن ثبتت الوقائع، إلى سنوات سجن فعلية".

سنوات سجن.

جلس يوهان خلف مكتبه طويلًا بعد انتهاء المكالمة، ينظر إلى الملف الإلكتروني المرسل إليه للتو، صفحات من أرقام وتوقيعات وتواريخ، دليلًا كاملًا يمكنه، بضغطة واحدة، أن يحوّل حياة أعز أصدقائه من نجاح هادئ إلى كارثة لا رجعة فيها. لم يكن قد خطط لهذا بالتحديد؛ فالثغرة التي بحث عنها في البداية كانت مالية بحتة، انتقاماً هادئاً في حدود العقود والأرباح،

لا شيئاً بهذا الوزن الجنائي. لكن الفرصة، حين تقع في يد رجل تعلّم طوال حياته ألا يترك فرصة تمر دون استثمار، لا تُرفض؛ فبعض الرجال لا يبحثون عن السلاح الأقسى، بل يكتفون بأن يبقوا صامتين حين يسقط ذلك السلاح في أحضانهم بمحض الصدفة.

فكّر للحظة في أن هذا أبعد بكثير مما قصده حين بدأ بحثه الأول عن ثغرة عقدية بسيطة، وأن ملفاً بهذا الوزن يمكن أن يدمّر حياة رجل بأكملها، لا مشروعاً واحداً فقط. لثانية واحدة، فكّر في التراجع، في تمزيق الملف وإنهاء كل هذا عند حدود الخسارة المالية التي أوقعها بالفعل. لكن الفكرة تلاشت بالسرعة نفسها التي جاءت بها؛ فالرجل الذي جلس أمس على طاولة عشائه وأعلن مصير ابنه دون أن يرمش، لم يعد من النوع الذي يتراجع عن أي شيء بدافع الشفقة.

أغلق الملف، وفتح بريده الإلكتروني، وبدأ يكتب رسالة موجزة إلى محاميه، بخط أصابع ثابت لا يتردد: "احتفظ بهذا الملف جاهزاً. لا نتحرك بعد. ننتظر التوقيت المناسب." أرسل الرسالة، وأسند ظهره إلى كرسيه، ونظر إلى المدينة الممتدة خلف زجاجه، وابتسم تلك الابتسامة الباردة نفسها التي بدأت تصبح، خلال الأسابيع الأخيرة، الوجه الوحيد الذي يعرفه العالم منه.

فالسلطة الحقيقية، كما تعلّم يوهان في تلك اللحظة بالذات، لا تكمن في استخدام السلاح، بل في معرفة أنك تملكه، وأن الآخر لا يعرف بعد أنك تملكه؛ فتلك المسافة الصامتة بين المعرفة والجهل هي، في نهاية الأمر، أخطر أنواع السلطة على الإطلاق.

في تلك الليلة نفسها، بدأ كريم، في غرفته، يفرز ما سيأخذه معه إلى مدينة لم يخترها، وما سيتركه خلفه: صور جوري المطبوعة التي علّقها على جدار غرفته، كاميرته القديمة التي لم يعد متأكداً إن كانت ستجد مكاناً

لها في حقيبة سفر مخصصة لكتب إدارة الأعمال، ودفتراً صغيراً كتب فيه، منذ سنتين، كل الأماكن التي يحلم بتصويرها يوماً. أغلق الدفتر، ووضعه في أسفل الدرج، لا لأنه قرر التخلي عن الحلم، بل لأنه، لم يعد يعرف أي جزء منه لا يزال مسموحاً له أن يحلم به.

الفصل السادس

الصمت

استدعى يوهان ينال إلى مكتبه مساء الاثنين، لا إلى البيت، ولا إلى مقهى يعرفانه منذ الجامعة، بل إلى ذلك المكان بالتحديد، الطابق الثامن عشر، حيث تُعقد الصفقات الكبرى وتُطوى الأسرار الكبرى بالهدوء نفسه. جلس ينال أمامه، منهكاً، عينان محاطتان بهالتين داكنتين من أسابيع أرق متواصل، وسأله بصوت يحمل بقايا أمل: "هل وجدت من يساعدني كما وعدت؟"

ولاحظ يوهان، وهو يتأمل وجه صديقه المنهك، أن رائحةً غريبة تسللت لوهلة إلى المكتب؛ لم تكن عبيرَ القهوة ولا عبقَ الأوراق القديمة المألوفة، بل شذا معقّمٍ يلسع الأنف، اختفت بسرعة قبل أن يستطيع تحديد مصدرها، فأرجعها إلى نظام التهوية القديم. ثم قال، بصوت خفيض دافئ لم يعتده ينال منه في الأسابيع الأخيرة: "ينال، أثناء مراجعة روتينية لبعض ملفاتك مع محامٍ أثق به، وجدنا شيئاً. مستند رهن قديم لتلك الأرض، فيه ثغرة يمكن، لو وقعت في يد شخص لا يحبك، أن تدمّرك تماماً. سنوات سجن يا صديقي، لا أقل." توقف، ونظر إلى عيني ينال المذعورتين، وأضاف، بابتسامة حزينة: "لكن، لحسن حظك، وقعت الورقة في يدي أنا، لا في يد أحد آخر."

شحب وجه ينال، ومدّ يده نحو الملف الذي وضعه يوهان أمامه، بيد بدأت ترتجف قبل أن تلمسه حتى. "يوهان... أنا لا أفهم كيف حدث هذا، لم أقصد يوماً..." قاطعه يوهان بحركة هادئة من يده، وقال: "لا تفسّر لي شيئاً. لست هنا لأحاسبك، بل لأحميك، سأحتفظ بهذه النسخة، في مكان آمن،

لا لأستخدمها ضدك يوماً، بل لأنه من الأفضل أن تبقى في يد رجل لن يخونك أبداً، بدل أن تقع، لو تكرر الحظ السيئ، في يد أحد لا يعرف قيمتك كما أعرفها أنا".

جلس ينال صامتاً، يراقب الورق الذي اختفى في درج مكتب صديقه، غير قادر على أن يفهم بالضبط ما الذي يشعر به: امتناناً؟ خوفاً؟ كلاهما معاً؟ "لن أنسى لك هذا يا يوهان،" قالها أخيراً بصوت مخنوق. ابتسم يوهان ابتسامة عريضة صادقة في ظاهرها تماماً، ومال إلى الأمام، وأمسك بكتف صديقه بحرارة: "أنت لا تدين لي بشيء. أنت أخي، ينال، لا صديقي فقط. منذ عشرين عاماً وأنت العمُّ الذي أحبّ ابني كريم أن يكون له، والأخُ الذي لطالما وثقتُ بأن زوجتي سيلين تجد فيه سنداً حين أنشغل، والصديقُ الوحيد الذي لم أشكّ يوماً في وفائه لهذا البيت". كانت الكلمات كلها صادقة الوقع، دافئة، لكن شيئاً في نبرتها، في تلك القائمة الطويلة من الامتنان التي عدّدها يوهان ببطء متعمّد، جعل ينال يشعر، دون أن يعرف لماذا بالضبط، بأن الهواء في الغرفة قد أصبح أثقل بشكل غريب.

"سنوات من الأخوّة الحقيقية لا تُنسى يا أخي ينال،" أضاف يوهان، وهو لا يزال يمسك بكتفه، نظرته ثابتة لا تحيد. "وأنا رجل لا يخون إخوته أبداً، مهما فعلوا معي". كانت الجملة الأخيرة عابرة، ملقاة بخفة كأنها جزء طبيعي من الحديث، لكنها استقرت في صدر ينال كحجر بارد، وابتسم بابتسامة مرتبكة لم يفهم هو نفسه معناها الكامل، وشكر يوهان مرّة أخرى، وحاول أن يقول شيئاً آخر، أن يسأل بوضوح أكبر عمّا قصده يوهان بالضبط، لكن الكلمات تعثرت في حلقه، وغادر المكتب بعد قليل، شاعراً بامتنان عميق يتنازعه قلق أعمق لا يستطيع تسميته.

لم يكن ينال، وهو يقود سيارته في الظلام تلك الليلة، قادراً على تفسير ذلك الثقل الغريب الذي يجلس على صدره رغم كل ما سمعه من كلمات

محبة؛ فبعض التهديدات لا تحتاج إلى كلمة تهديد واحدة لتصل كاملة، حين تُغلَّف بما يكفي من الامتنان الصادق الذي لا مفرّ منه.

بدأت التغيرات تظهر خلال أيام قليلة. ألغى ينال درس القيادة الأسبوعي مع كريم بذريعة "انشغال مفاجئ بالعمل"، ولم يمرّ بالبيت لأسبوعين متتاليين، ولم يرد على رسائل سيلين إلا بجمل مقتضبة باردة لا تشبه دفء ينال الذي عرفته طوال سنوات. لاحظ كريم غيابه أولًا، بحاسة من فقد للتو، خلال أسابيع قليلة، كل ما كان يعرّفه بنفسه: التصوير، جوري، والآن هذا الرجل الذي كان أقرب إلى أب ثانٍ منه إلى مجرد صديق للعائلة. ترك له رسالة صوتية لم يصله رد عليها، صوته فيها أقرب إلى صوت طفل صغير: "عم ينال، هل أزعجتك بشيء؟ اشتقت لك".

أما سيلين، فقد وجدت نفسها، خلال الأسابيع نفسها، تعيش في بيت تعرف كل حجر فيه لكنها لم تعد تعرف الرجل الذي يسكنه معها. توقف يوهان عن سؤالها عن يومها، وتوقف عن الجلوس معها في الصالة بعد العشاء كما اعتادا لعشرين عاماً، وأصبح يعود متأخراً كل ليلة تقريباً، ليجد البيت نائماً حين يصل. جربت كل شيء: عشاء رومانسي أعدّته بنفسها، رسالة صغيرة تركتها في جيب سترته، سؤال مباشر بعينين دامعتين وقفت به عند باب مكتبه ذات ليلة، تحمل كوب شاي لم يطلبه، فشكرها بكلمة واحدة جافة وعاد إلى شاشته فوراً.

ذهبت سيلين إلى عيادة كلير ذات ظهيرة، دون موعد مسبق، وجلست أمامها تبكي بصمت أول دقيقتين قبل أن تستطيع الكلام. "كلير، لم أعد أعرفه. يتحدث معي بأدب موظف، لا بدفء زوج". استمعت كلير بصمت، تمسك بيدها، ثم قالت، بنبرة الحكمة الهادئة نفسها التي تكررها كلما سُئلت عن أخيها: "الرجال يمرّون أحياناً بأزمات صمت لا علاقة لها بمن حولهم. أعطيه وقتاً. سيعود". لم تشعر سيلين، وهي تغادر العيادة، بأي

طمأنينة حقيقية، بل بذلك القلق الغامض نفسه الذي بدأ يكبر بصمت، كظل يطول كل يوم دون أن يلاحظ أحد بالضبط متى بدأ يتمدد.

مع اقتراب موعد سفر كريم، بدأ البيت يتحول تدريجياً إلى ورشة صغيرة من الاستعدادات المكتومة، كل فرد فيها يعبّر عن حبه للراحل بطريقته الخاصة الصامتة. أحضرت كلير هدية لفّتها بنفسها بورق أزرق داكن، ساعة يد كلاسيكية بسيطة نقشت على ظهرها حرف اسمه الأول، وقالت له وهي تسلّمها إياه في زيارة قصيرة: "لتتذكر أن الوقت يمرّ سريعاً، وأن العائلة تنتظرك مهما طال بعدك عنها". عانقها كريم طويلًا، شاكراً، غير مدرك أن عمّته اختارت هدية الساعة تحديداً لأنها، كطبيبة، تعرف جيداً أن بعض الهدايا تحمل من الرمزية أكثر مما يحمله صاحبها من وعي بها.

أما نجاة، التي عرفت كريم منذ كان طفلًا بالكاد يصل إلى حافة المطبخ، فقد أمضت الأيام الأخيرة قبل سفره تُعدّ له، بصمت لا يقل حباً عن أي كلمة، أشياء صغيرة حرصت أن تدسّها في حقيبته: علبة معدنية صغيرة من الكعك الذي يحبه محشوة بعناية بين الملابس، رسالة صغيرة مكتوبة بخط يدها العربي المتعثر تدعو له فيها بالتوفيق، وصورة قديمة له وهو طفل في الرابعة يجلس على ركبتيها في مطبخ البيت القديم. حين وجد كريم تلك الصورة لاحقاً في لندن، بكى وحيداً في غرفته أطول مما بكى عند أي وداع آخر؛ فقد اكتشف تلك الليلة أن الحب الذي يأتيك ممن لا يُلزمها عقدٌ ولا واجبٌ بأمومتك، كحب نجاة، هو أنقى وأصدق ما يرافقه المرء في غربته.

ودّعته نجاة عند الباب صباح السفر بعناق طويل صامت، لم تقل فيه كلمة واحدة، لأن دموعها كانت أبلغ من أي وداع كلامي يمكن أن تصوغه؛

فبعض النساء يتقنّ لغة الحب بالأفعال وحدها، حتى حين يُطلب منهنّ، مراراً طوال حياتهن، أن يبقين في الخلفية، بلا اسم يُذكر في أي قصة.

التقى كريم بجوري في اليوم الذي سبق سفره بيوم واحد، عند الشاطئ نفسه الذي جمعهما أول مرة، وجلسا على الرمل حتى غابت الشمس، لا يتحدثان كثيراً، وكأن الكلمات أصبحت زائدة عن الحاجة أمام وداعٍ يقفان أمامه بقلّةِ حيلةٍ تامة.. أعطته صندوقاً صغيراً فيه ألبوم صور طبعته بنفسها من هاتفها، كل صورة التقطها هو لها خلال الأشهر القليلة الماضية، وكتبت على الغلاف: "لترى نفسك كما رأيتك أنا دائماً: عيناً لا تخطئ الجمال". بكيا معاً تلك الليلة، بلا خجل، وودّعا شيئاً كان لا يزال، في الحقيقة، في بداياته الأولى، ولم يُمنح فرصة كافية ليصبح ما كان يمكن أن يصبح عليه.

سألت سيلين كلير، وهما تتسوقان معاً لبعض احتياجات سفر كريم الأخيرة، سؤالًا لم تطرحه من قبل بهذا الوضوح: "كلير، لماذا لم تتزوجي بعد كل هذه السنوات؟ كنتِ جميلة، وما زلتِ، وكان بإمكانك أن تجدي من يستحقك". توقفت كلير للحظة أمام واجهة محل، ونظرت إلى انعكاسها فيها لا إلى سيلين، وقالت، بصوت هادئ لا يحمل دراما زائدة: "خطيبي مات قبل أربع وعشرين ساعة فقط من عقد قراننا. كنت قد اخترت فستاني، وكان قد اختار خاتمي. بعد شيء كهذا، سيلين، لا يعود القلب يثق بالزمن بالسهولة نفسها." لم تُضف شيئاً آخر، وتابعت السير نحو المحل التالي، تاركة سيلين تمشي خلفها بصمت مثقل بتعاطف لم تجد له كلمات كافية.

مرّت ثلاثة أشهر على تلك الليلة التي أُعلن فيها قرار لندن، ثلاثة أشهر تسارعت في نهايتها بسرعة أفزعت الجميع، حتى وصل أخيراً ذلك الصباح الذي طال الخوف منه أكثر من انتظاره: صباح رحيل كريم.

وقفوا جميعاً عند صالة المغادرة في المطار، سيلين تتشبث بذراع ابنها وكأنها تحاول، بجسدها وحده، أن تؤخّر لحظة لا تملك سلطة تأخيرها، ودموعها تنهمر دون أن تحاول إخفاءها هذه المرة أمام أحد. "اتصل بي كل يوم، كل يوم يا حبيبي، وعدني". همست وهي تقبّل وجهه مراراً، وكريم، رغم محاولته أن يبدو رجلًا هادئاً كما ينبغي لشاب على أعتاب حياة جديدة، انهار أخيراً بين ذراعيها، وبكى بصوت لم يخجل منه للمرة الأولى منذ سنوات.

وقف يوهان على مسافة قليلة، منتصباً، بمعطفه الرمادي الأنيق، ويداه خلف ظهره، يراقب المشهد بوجه لا يشي بشيء، وحين اقترب كريم منه أخيراً ليودّعه، عانقه عناقاً قصيراً محسوباً، وقال له، بصوت هادئ لا يرتجف: "اجتهد، واجعلني فخوراً بك." لم يقل إنه سيشتاق إليه. لم تنزل من عينيه دمعة واحدة. ورأت سيلين، من خلف دموعها، تلك البرودة، وشعرت، للحظة، بغضب أعمق من حزنها نفسه: كيف يمكن لرجل أن يودّع ابنه الوحيد المسافر إلى قارة أخرى بهذا الهدوء القاتل؟

ابتعد كريم أخيراً نحو بوابة الصعود، ملتفتاً مرة أخيرة ليرى أمه تلوّح له بيد ترتجف، وأباه واقفاً بلا حراك، وشعر، وهو يعبر البوابة، أنه يترك خلفه ليس بيتاً فحسب، بل نسخة كاملة من نفسه لم يعد يعرف إن كان سيلتقي بها مرة أخرى.

عاد يوهان وسيلين إلى بيت فارغ تلك الليلة، فارغ بمعنى لم يعرفاه من قبل. بكت سيلين تلك الليلة طويلًا، وحاولت أن تستند إلى زوجها، فوجدته يجلس على الطرف الآخر من السرير، ظهره إليها، هاتفه في يده، وكأن رحيل ابنهما لم يكن حدثاً يستحق أكثر من ليلة واحدة من الحزن المهذّب.

لكن يوهان، في تلك الليلة بالذات، كان يفكر بوضوح تام لم يعرفه منذ أسابيع. فبرحيل كريم، سقط آخر عائق كان يحول بينه وبين ما قرر فعله منذ أن رأى الرقم صفر على شاشة هاتفه: لم يعد هناك ابن يحتاج إلى حماية من مواجهة قد تهزّ البيت من أساسه، ولا حاجة إلى الحفاظ على واجهة هادئة من أجل عينين مراهقتين تراقبان كل حركة. المسرح، أخيراً، أصبح خالياً من الجمهور الذي كان يخشى أن يتأذى، ولم يبقَ فيه سوى الممثلين الحقيقيين.

فكّر، في تلك الليلة، فيما قرر ألا يفعله: لن يواجه سيلين بما يعرفه. لن يطلب الطلاق، ولن يفضح شيئاً أمام أحد. فالرجل الذي تُخونه زوجته، في نظر هذا العالم الذي وُلد فيه، لا يخسر زوجته فقط حين يعلن خيانتها؛ يخسر معها صورته كاملة، ذلك الشيء الذي بناه بصبر طوال حياته والذي لا يُقاس بمال ولا يُعوَّض بزواج جديد. الرجل المخدوع يصبح في أعين الناس ناقص الرجولة، موضوع شفقة ممزوجة بسخرية خفية لا تُقال بصوت عالٍ لكنها تُقال دائماً. أما المرأة، حين تُكتشف خيانة زوجها، فتكسب على الفور تعاطف العالم كله، وتتحول الفضيحة نفسها، في يدها، إلى رأس مال عاطفي يستدرّ العطف بدل الشماتة. لن يمنح يوهان أحداً تلك الفرصة. سيبقى صامتاً، وسينتقم بطريقته الخاصة، البطيئة، الباردة، التي لا تترك بصمة واحدة تدين صاحبها.

قرر، في اليوم نفسه، أن الشك وحده لم يعد كافياً؛ فالشك يحرق صاحبه من الداخل دون أن يمنحه شيئاً ملموساً يقبض عليه، بينما المعرفة، مهما كانت مؤلمة، تمنح صاحبها زمام الأمر. اتصل برجل عمل معه سنوات في قسم الأمن بشركته، رجل يعرف كيف يراقب دون أن يُرى، ودفع له مبلغاً كبيراً مقابل صمت لا يُنقض، وطلب منه مهمة واحدة

فقط: أن يتابع سيلين، من بعيد، بلا تدخل، ويخبره بكل تحركاتها، مهما بدت عادية.

بعد أيام قليلة من رحيل كريم، اتصل يوهان بينال شخصياً، ودعاه إلى عشاء في البيت "لتصفية الأجواء قبل أن يصبح الأمر غريباً بين الجميع"، على حد تعبيره. تردد ينال طويلًا قبل أن يقبل، وحين أخبرته كلير بالدعوة أيضاً، ودعتها سيلين لتكتمل الطاولة كما كانت دائماً، شعر الجميع، دون أن يفصحوا عن ذلك، بأن هذا العشاء يحمل وزناً أكبر من مجرد لقاء عائلي عابر.

جلسوا حول الطاولة مساء الخميس، أربعتهم فقط، بلا صخب حفلات ولا ضيوف كثر يخفّفون من كثافة الصمت الذي كان يحوم فوق رؤوسهم، بينما كانت نجاة تتنقل بينهم بهدوء معتاد، تملأ الكؤوس وتقدّم الأطباق دون أن يلاحظها أحد كثيراً، كما تفعل دائماً في مثل هذه الأمسيات. تحدثوا في البداية عن أمور عابرة: طقس الأسبوع، رسالة وصلت من كريم صباح ذلك اليوم يخبر فيها أمه أنه استقر في سكنه الجامعي، وولادةٍ متعثرةٍ أشرفت عليها كلير في الصباح نفسه، أثمرت طفلًا جميلًا ذكّرها بكريم الذي ولد على يديها قبل ثماني عشرة سنة.

ثم، بين طبق رئيسي وآخر، وبلا مقدمات تُذكر، طرح يوهان سؤاله، بنبرة خفيفة تشبه نبرة من يطرح لغزاً على مائدة عشاء لا أكثر: "سيلين، ماذا كنتِ ستفعلين لو عرفتِ يوماً أن لي عشيقة أخونكِ معها؟"

جمدت الملاعق في الهواء للحظة. نظرت سيلين إليه بذهول ممزوج بابتسامة غير مصدّقة، وقالت: "أنت لا تفعل هذا." "صحيح،" أجاب يوهان بهدوء، "لكن لنفترض أنني فعلت." فكّرت سيلين لحظة، وضحكت ضحكة قصيرة متوترة، وقالت: "حتماً سأقتلك." ضحك يوهان بصوت

عالٍ، أعلى مما يبرره الموقف، وقال: "ألا تخافين من عقاب السجن؟" نظرت إليه سيلين بابتسامة ماكرة، تدخل اللعبة بدورها: "أنا أذكى من أن أنفّذها علناً. سأخفيك، وكأنك هربت، ثم أقتلك بهدوء بعد ذلك." ضحك الجميع حول الطاولة، ضحكة عائلية خفيفة بدت، للوهلة الأولى، وكأنها مجرد مزحة عابرة تخفف من جدية العشاء.

لكن يوهان لم يترك اللعبة عند هذا الحد. اتكأ إلى الخلف قليلًا، وشعر لوهلة بوخزةٍ خفيفة عند ثنية مرفقه، أشبه بأثر إبرةٍ قديمة لا يتذكر متى غُرزت، فحكّ ذراعه بانزعاجٍ صامت. نظر إلى الجميع بابتسامة تحمل شيئاً أعمق من المزاح، وقال: "هناك مقولة يرددها الناس دائماً، أن كل الرجال خائنون. لكن أظن أن على الناس أن يعيدوا النظر فيها، لأن الرجال حين يخونون زوجاتهم أو شريكاتهم، فهم في الحقيقة لا يخونونهنّ مع رجال مثلهم، بل يخونونهنّ مع نساء."

ساد صمت قصير بعد الجملة، من ذلك النوع الذي لا يعرف الجالسون إن كان عليهم الضحك منه أم التوقف عنده بجدية، قبل أن تكسره سيلين بضحكة أخرى خفيفة، معتبرة الأمر كله مزحة ذكية من زوج يحب أن يلعب بالكلمات.

لاحظت سيلين، في تلك الأثناء، أن ينال ظل شارداً معظم الوقت، عيناه معلقتان بنقطة غير موجودة على الطاولة، ملعقته تدور في طبقه دون أن ترفع منه شيئاً. سألته بلطف: "ما بك ينال؟ تبدو بعيداً الليلة." هزّ ينال رأسه، وحاول أن يبتسم، فخرجت الابتسامة مكسورة في منتصفها: "لا شيء. فقط الدنيا، لا أعرف لماذا، تقف ضدي في كل شيء هذه الأيام، وتعاندني لدرجة جعلتني أكره العيش أحياناً".

شعر يوهان، وهو يستمع إلى تلك الجملة بالذات، بشيء دافئ يتسلل إلى صدره، سعادة داخلية خفية لم يستطع أن يمنعها من أن تولد، وإن حاول جاهداً ألا تظهر على وجهه. حاول أن يحافظ على ملامح متعاطفة، أن يهزّ رأسه بحزن مصطنع مناسب، لكنّ شيئاً في عينيه، ابتساماً صغيراً هارباً لم يدم أكثر من جزء من ثانية، أفلت منه دون قصد.

لم تَغفَل كلير عن تلك اللحظة العابرة. رأتها بوضوح، تلك الشرارة العابرة من الشماتة في عيني أخيها، ونظرت إليه للحظة أطول من اللازم، ثم أعادت نظرها إلى طبقها، بلا كلمة، بلا تعليق، بلا سؤال.

لم يكن صمت كلير ذاك مجرد أدب اجتماعي عابر؛ كان، كما بدا لمن يعرف كيف يقرأ صمتها جيداً، اختياراً واعياً من امرأة اعتادت أن تحتفظ بملاحظاتها لنفسها حتى يحين الوقت الذي تصبح فيه تلك الملاحظة أكثر قيمة من أي تعليق عابر على مائدة عشاء.

انتهى العشاء بعد ذلك بهدوء ظاهري معتاد، توديع، قبلات على الخدود، وعود بلقاء قريب، بينما كانت نجاة تجمع الأطباق الفارغة من خلفهم بصمت معتاد لم يلتفت إليه أحد. وحين أغلقت سيلين الباب خلف آخر ضيف، وقفت في الصالة الخالية، ونظرت إلى زوجها الذي كان يصعد الدرج بهدوء، وسألته، بفضول لم تستطع كتمانه: "لماذا طرحت ذلك السؤال عليّ الليلة؟ عن الخيانة؟" التفت يوهان نحوها من منتصف الدرج، ورفع كتفيه بلا اكتراث ظاهري، وقال، بابتسامة عابرة: "سؤال بريء لا أكثر. أحياناً يخطر ببال المرء أسئلة كهذه دون سبب حقيقي". صدّقته سيلين، أو أقنعت نفسها بأن تصدّقه، وصعدت خلفه نحو غرفة نوم أصبحت، منذ أسابيع، مكاناً بارداً لا تعرف فيه زوجها كما عرفته يوماً.

في اليوم التالي، ظهراً، اتصل بيوهان مروان، وهو رجل يثق به منذ سنوات، موظف سابق في شركته كان قد كلّفه، بمقابل مادي سخي وسرية تامة، بمهمة لم يخبر بها أحداً: أن يراقب تحركات سيلين، بهدوء، من بعيد، دون أن تشعر. "سيد يوهان"، قال الرجل بصوت منخفض حذر، "زوجتك ذهبت هذا الصباح إلى منزل السيد ينال. بقيت هناك قرابة الساعة، ثم غادرت"، شكره يوهان بهدوء، وأنهى المكالمة دون أي رد فعل ظاهري، وبقي واقفاً عند نافذته طويلًا، ينظر إلى المدينة دون أن يراها فعلًا.

عاد إلى البيت ذلك المساء في موعده المعتاد، ووجد سيلين تحضّر العشاء، فقبّلها على خدها كعادته، وجلسا بعدها يتحدثان عن كريم، عن رسالة جديدة وصلت منه، عن خطط عطلة نهاية الأسبوع. وفي منتصف الحديث، بلا مقدمات، بالنبرة العابرة نفسها التي يسأل بها عن الطقس، قال: "بالمناسبة، ماذا فعلتِ اليوم؟" رفعت سيلين عينيها عن الطعام للحظة، وأجابت ببساطة: "لا شيء يُذكر، خرجت للتسوق قليلًا." أومأ يوهان برأسه، وابتسم تلك الابتسامة الهادئة التي لم يعد أحد في ذلك البيت يعرف ما تخفيه خلفها، وعاد إلى طبقه دون أن يضيف كلمة أخرى.

فبعض الابتسامات لا تُقال لتُطمئن من يراها، بل لتُخفي، خلف زواياها الهادئة، حساباً دقيقاً لم يكتمل بعد؛ وأخطر الرجال ليسوا من يسألون بصوت مرتفع، بل من يسألون بلا مبالاة ظاهرة تماماً، بينما تنتظر آذانهم جواباً واحداً فقط، ليست هناك حاجة لأن يصدّقوه أصلًا.

الفصل السابع

الوشاح الأسود

بعد أسبوعٍ واحدٍ فقط من ذلك العشاء الذي خُتم بابتسامة يوهان الغامضة، اختفت سيلين.

مرّ ذلك الأسبوع بهدوءٍ خادعٍ وأشبه بذاك السكون الثقيل الذي يسبق العاصفة؛ سكونٌ يخدع الجميع ولا يُدرك أحدٌ حقيقته إلا بعد أن تقع الكارثة ويكون الأوان قد فات.

في صباح ذلك اليوم، لم يكن الطقس شديد البرودة، لكن السماء كانت ملبدة بغيومٍ رمادية كثيفة تمنع خيوط الشمس الدافئة من الوصول إلى النوافذ، لتضفي على البيت ظلًا باهتاً محتبساً. استيقظ يوهان ورشف قهوته الصباحية التي أعدتها له نجاة بإتقانها المعتاد، وأثناء جلوسه انضمت إليه سيلين. تبادلا أطراف حديثٍ عاديٍّ هادئ، وسألته بنبرةٍ طبيعية عما يفضل أن يتناوله على العشاء، قبل أن يودّعها ويخرج متجهاً إلى أعماله.

بدت سيلين، في ظاهرها على الأقل، زوجة تجاهد لتتصالح مع برود زوجها بصبرِ امرأةٍ تُدرك أن الزواج قد يمرّ أحياناً بفصولٍ غامضة لا تتجلّى حقيقتها إلا بعد انقضائها. غير أن يوهان، المستغرق في مراقبته الخفية وحساباته الباردة، لم يلمح التفصيل الأكثر أهمية: كانت زوجته، في تلك الأيام بالذات، أكثر هدوءاً مما ينبغي... ذلك الهدوء الساكن الذي يسبق قراراً حاسماً لا رجعة فيه.

لم يكن اختفاءً دراماتياً بالمعنى الذي تتخيله الأفلام، بلا صراخ، بلا باب مكسور، بلا أثر عنف واحد يستدعي أن يهرع أحد إلى الشارع صائحاً. كان اختفاءً بارداً، ناعماً، من ذلك النوع الذي يبدأ بصمت يوم عادي تماماً، ثم يتحول، ساعة بعد ساعة، إلى فراغ لا يشبه أي فراغ آخر عرفه يوهان في حياته.

اتصل بها ظهراً، كما يفعل كل يوم تقريباً منذ عشرين عاماً، ليجد رنيناً غريباً يخبره أن الهاتف خارج نطاق التغطية. أعاد الاتصال، مرةً، ثم مرتين، ثم عشر مرات متتالية خلال ساعة واحدة، والرسالة نفسها تتكرر في أذنه كطبل بعيد ينذر بشيء لم يستطع بعد أن يسمّيه. اتصل بمروان، الرجل الذي كلّفه بمراقبتها، بصوت حاول أن يبقيه هادئاً رغم الاضطراب الذي بدأ يتسلل إليه: "أين هي؟" فأجابه الرجل، بحيرة واضحة في صوته: "سيدي، لم تخرج من المنزل اليوم على الإطلاق، حسب ما رأيته من موقعي." تجمّد يوهان للحظة أمام تلك الجملة؛ فإما أن مروان يكذب، أو أن هاتفاً واحداً غاب عن التغطية بينما صاحبته لا تزال داخل الجدران نفسها التي يعرفها عن ظهر قلب.

"هل أنت متأكد يا مروان؟" سأله مجدداً، بصوت ارتفعت فيه حدّة لم يعتد عليها في نفسه. "متأكد تماماً يا سيدي، لم أغب عن موقعي لحظة واحدة منذ الصباح". أغلق يوهان الخط دون أن يشكره، وشعر بذلك الشرخ الأول في يقينه: إن كان الرجل صادقاً، فإن سيلين لم تخرج من الباب الأمامي الذي يراقبه، وهذا يعني أنها خرجت من مكان آخر، بطريقة أخرى، مخطَّطة سلفاً بدقة لم يتوقعها من امرأة عاشت معه عشرين عاماً دون أن يشك يوماً في براعتها في الاختفاء.

اتصل بكلير بعدها مباشرة، بصوت حرص أن يخرج عادياً، وسألها إن كانت قد تحدثت مع سيلين ذلك اليوم. "لا يا يوهان، كنت في المستشفى منذ

الصباح الباكر، أشرفت على عمليتي ولادة متتاليتين، بالكاد رفعت رأسي عن غرفة العمليات." كانت إجابتها سريعة، منطقية، مشغولة بما يكفي ليصدّقها دون تدقيق، ومع ذلك، شعر يوهان، وهو يشكرها وينهي المكالمة، بشيء غريب يتسلل إلى معدته، ثقل لم يعرف بعد اسمه الحقيقي.

فكّر، للحظة، أن يتصل بينال. أن يسأله السؤال المباشر الوحيد الذي يمكن أن يمنحه جواباً حقيقياً: هل تعرف أين زوجتي؟ لكن يده توقفت في منتصف الطريق نحو الاسم على شاشة هاتفه؛ فماذا سيقول له بالضبط؟ كيف يطرح سؤالًا كهذا على رجل يعرف، هو نفسه، كل شيء عن ثقله الحقيقي؟ أعاد الهاتف إلى جيبه، وابتلع السؤال، وقرر أن يبحث في كل اتجاه آخر قبل أن يواجه ذلك الاتجاه بالذات.

قضى بعد الظهر كله يتصل بالأقارب والأصدقاء المشتركين، بأسلوب غير مباشر متعمّد، سؤال عابر هنا، مزحة خفيفة هناك: "هل رأيتم سيلين اليوم؟ أحاول أن أفاجئها بشيء ولا أجدها." كان يحرص، مع كل مكالمة، ألا يترك خلفه أثراً واضحاً للقلق، لأن رجلًا في موقعه لا يسمح لنفسه أن يظهر أمام معارفه بمظهر الزوج الذي فقد أثر زوجته؛ فالسمعة، حتى في أحلك اللحظات، تبقى حساباً لا يُهمَل.

فالرجال الذين وُلدوا في عالم يوهان لا يتصلون بالشرطة عند أول أزمة؛ يتصلون بمن يعرفونه، بمن يدين لهم بمعروف قديم، بمن يستطيع أن يحل المشكلة بهدوء قبل أن تتحول إلى حديث مجالس. فالاستعانة بالسلطة الرسمية، في ذلك العالم بالذات، ليست خطوة أولى بل اعترافاً بالهزيمة، دليلًا على أن شبكة العلاقات الخاصة، تلك التي بُنيت بعناية على مدى أجيال، قد عجزت أخيراً عن حل ما كان ينبغي أن تحله بصمت. لم يفكر يوهان، طوال ذلك النهار، في الاتصال بأي جهة رسمية؛ فكرة كهذه لم

تخطر بباله حتى، لا لأنه لم يقلق بما يكفي، بل لأن نوعاً واحداً فقط من الرجال يلجأ إلى الشرطة بهذه السرعة، وهو ليس، في نظر نفسه على الأقل، من ذلك النوع.

لم تفضِ أي مكالمة إلى نتيجة. لا أحد رآها. لا أحد سمع منها. وكأن سيلين قد ذابت في الهواء نفسه الذي تنفسته صباح ذلك اليوم.

عاد إلى البيت مع اقتراب المساء، فوجد نجاة تقف في المطبخ، قلقة، وأكياس التسوق لا تزال ممتلئة جزئياً. "سيدي، السيدة سيلين أرسلتني في الصباح لشراء بعض مستلزمات المنزل، فذهبت إلى ثلاثة أسواق مختلفة كعادتي. حين عدت، لم أجدها في البيت. ظننت أنها خرجت لأمر عاجل، ولم أشأ أن أزعجكم بالاتصال". كانت نجاة، وهي تروي التفاصيل، تعصر طرف مريولها بين أصابعها بلا وعي، حركة صغيرة خانت قلقاً أعمق مما سمحت لصوتها أن يظهره. سألها يوهان، بصوت حاول أن يبقيه هادئاً: "هل قالت لك شيئاً غير معتاد قبل أن ترسلك؟ هل بدت مختلفة؟" ترددت نجاة للحظة، ثم قالت بحذر: "طلبت مني أن آخذ وقتي في التسوق أكثر من العادة، سيدي، وهذا وحده أثار استغرابي، لكنني لم أفكر فيه كثيراً وقتها".

اتصل بكريم في لندن، بصوت حاول أن يبدو هادئاً تماماً حتى لا يفزع ابنه من بعيد، وسأله إن كان قد تحدث إلى أمه ذلك اليوم. "نعم بابا، اتصلت بي صباحاً، مبكراً جداً بتوقيت هنا، كل شيء كان طبيعياً تماماً، سألتني عن دراستي وضحكنا قليلًا." توقف كريم للحظة، ثم أضاف بقلق متصاعد: "لماذا تسأل؟ هل حدث شيء لأمي؟" طمأنه يوهان بكذبة سريعة عن "سوء تفاهم بسيط في المواعيد"، وأنهى المكالمة، وشعر بيديه تتصلبان وهو يتذكر تفصيلة أخرى تحتاج تأكيداً: نزل إلى المرآب، ووجد سيارة سيلين في مكانها المعتاد تماماً، باردة، لم تتحرك منذ الصباح،

شاهدة صامتة على أن صاحبتها غادرت هذا البيت سيراً على قدميها، أو في سيارة ليست سيارتها.

صعد إلى غرفة الحراسة الصغيرة عند مدخل المبنى، وطلب من الحارس المناوب تشغيل تسجيلات كاميرات المداخل لذلك اليوم. جلس أمام الشاشة الصغيرة، عيناه لا تطرفان، يراقب الساعات تمرّ بسرعة على الشريط المسجَّل، حتى توقف فجأة، وأشار للحارس أن يجمّد الصورة. وشعر، وهو يحدّق في الشاشة الرمادية المهتزة، ببرودةٍ غريبةٍ تسري في ذراعه اليمنى، من نقطةٍ واحدةٍ صغيرةٍ تحت الجلد، كأن أنبوباً رفيعاً يغذّيها منذ زمنٍ طويل، ثم تلاشى الإحساس بسرعةٍ تركته يشكّ في أنه شعر بشيءٍ أصلًا.

كانت سيلين هناك، عند الباب الخلفي للمبنى، ذلك الذي لا يستخدمه أحد تقريباً لأنه يطل على زقاق ضيق خلف موقف السيارات. لم تكن ترتدي ملابسها المعتادة الأنيقة التي عرفها بها طوال عشرين عاماً، بل معطفاً داكناً بسيطاً، ونظارات شمسية سوداء كبيرة تغطي نصف وجهها رغم أن السماء، في تلك الساعة من الصباح، كانت غائمة تماماً، ووشاحاً أسود لفّته حول رأسها وجزء من وجهها بطريقة لا تخدم إلا غرضاً واحداً: ألا يتعرف عليها أحد.

وقف يوهان أمام تلك الصورة المجمّدة طويلًا، ويداه، دون أن يقصد، بدأتا تنغلقان على حافة الطاولة الخشبية أمامه حتى شُدَّت عروقُهما وقَسَت مفاصلُه، وفكّه تصلّب إلى درجة أن عضلة صغيرة بدأت ترتجف عند زاويته، وشعر بالدم يتدفق في أذنيه بصوت يشبه هدير بحر بعيد. لم تكن هذه امرأة تخرج للتسوق أو لزيارة أحد. كانت هذه امرأة تهرب، بكل ما تحمله الكلمة من تخطيط وحذر ورغبة محسوبة في ألا تُرى، وشعر يوهان، في لحظةٍ فارقة بعد أسابيع طويلة من التحكم الكامل بكل شيء من حوله،

بإهانة خام لم يعرف مثلها من قبل: إهانة رجل اكتشف أن كل خططه الباردة الدقيقة قد سبقتها خطة أخرى، أكثر بساطة وأشد فتكاً، حاكتها امرأة ظنّ أنه يعرف كل تفصيلة فيها.

بعد تردد لم يدم أكثر من دقيقتين، اتصل بينال. كان هاتفه مغلقاً تماماً. قاد سيارته فوراً إلى بيته، وطرق الباب بقوة متكررة لم يستخدمها من قبل، فلم يجب أحد. سأل الجيران، فأخبروه أنهم لم يروه منذ صباح اليوم السابق. وقف يوهان أمام الباب الموصد دقائق طويلة، يداه في جيبيه تنقبضان وتنبسطان بلا توقف، وعيناه تفحصان النوافذ المظلمة لعله يلمح ظلًا يتحرك خلف ستائرها، لكن البيت كله بدا مطفأً، مهجوراً، كأنه هو الآخر قد قرر أن يشارك صاحبه لعبة الاختفاء.

مرّ بمكتب ينال أيضاً، ذلك المكتب الصغير الذي بقي له بعد كل الخسائر، فوجده مغلقاً، وموظفته الوحيدة عبر الهاتف تخبره بارتباك أن "السيد ينال لم يحضر اليوم، ولم يتصل ليعتذر، وهذا غير معتاد منه على الإطلاق."

في تلك اللحظة، حسم يوهان الأمر في رأسه، بيقين بارد لا يقبل النقاش: لا بد أنهما هربا معاً.

فالعقل، حين يُثقَل بشهورٍ من الشك المؤجَّل، لا يبحث بعد ذلك عن أدق التفسيرات، بل عن أسرعها؛ يمسك بأول قصة تُنهي الغموض، ويتشبث بها بقوة من ينقذ نفسه من الغرق، حتى لو كانت تلك القصة، في الحقيقة، مجرد شكل آخر من أشكال الغرق ذاته.

عاد إلى بيته الفارغ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، وجلس في الظلام دون أن يشعل نوراً، وبدأت السيناريوهات تتوالى في رأسه، واحدٌ تلو الآخر، بلا رحمة وبلا توقف؛ يتخيلهما في مطارٍ بعيد يتضاحكان بحريةٍ لم يمنحاها له يوماً، يتخيل سيلين تروي لينال، بينهما وحدهما، كل التفاصيل الصغيرة

التي كانت يوماً ملكه هو وحده، يتخيل يداً تمسك بيد، وجسدين يعرفان بعضهما بعمقٍ لم يتخيله في أسوأ كوابيسه.

لم ينم تلك الليلة لحظةً واحدة، لم يتذوق طعاماً، ولم يشرب قطرة ماء؛ جلس في مكانه ثابتاً كتمثال، بينما كانت الساعات تمرّ من حوله كأنها لا تخصّه. وفي عمق ذلك الظلام، سمع، أو ظنّ أنه سمع، ذلك الصفيرَ البعيدَ المتباعدَ يعاوده، الصوتَ نفسه الذي يلاحقه منذ أشهرٍ في لحظات الصمت، دون أن يكلّف نفسه يوماً عناء التساؤل الجاد عن مصدره الحقيقي.

جاءت كلير في صباح اليوم التالي، قلقة بعد أن لم يردّ على اتصالاتها المتكررة طوال الليل، ودخلت البيت بمفتاحها الخاص لتجده جالساً في الظلام، وجهه اصفرّ حتى بدا كأنه مريض حقاً، وثيابه هي نفسها التي كان يرتديها منذ اليوم السابق، مجعّدة، تحمل رائحة يوم كامل من التوتر غير المغسول. جلست أمامه، وأمسكت بيديه الباردتين، وحاولت أن تعيده إلى الكلام بصوت هادئ حنون.

أخبرها بكل شيء: الهاتف المنقطع، الرجل الذي راقبها ولم يرها تخرج، الكاميرا، الوشاح، ينال المختفي هو الآخر. استمعت كلير بصمت مطبق، ووجهها يزداد شحوباً مع كل تفصيلة جديدة، حتى قال لها أخيراً، بصوت لم يعد يحمل أي محاولة للسيطرة: "قررت. سأقدّم الأوراق التي تدين ينال إلى الشرطة اليوم. إن لم أستطع أن أجده بنفسي، فلتفعل الشرطة ذلك بطريقتها".

"تريّث يا أخي". كانت كلير أول من كسر الصمت، بصوت حذر مثقل بالقلق. "إن فعلت هذا، سيعرف الجميع بالفضيحة كلها. لن تبقى قصة خاصة بيننا بعد الآن". نظر إليها يوهان بعينين لا تعرفان الرحمة في تلك اللحظة،

وقال: "لم تعد الفضيحة تخيفني يا كلير. المجرمون يجب أن يحاسَبوا، وأن ينالوا أشد عقاب ممكن. لن أرحم أحداً بعد اليوم".

حاولت مرة أخرى، بنبرة أكثر إلحاحاً: "وسمعتك؟ سمعة العائلة كلها؟ أنت من علّمتني أن بعض الأشياء لا تُغسل بمجرد أن تُقال بصوت عالٍ." ضحك يوهان ضحكة قصيرة جافة لا فرح فيها على الإطلاق، وقال: "السمعة يا كلير كانت آخر همّي منذ اللحظة التي رأيت فيها تلك الصورة على شاشة الحارس. لم يعد لدي شيء أخسره أكثر مما خسرته بالفعل".

حاولت كلير مرة أخرى، بورقة أخيرة لم تكن تملك غيرها: "فكّر في كريم". توقف يوهان للحظة، ونظر إليها بوجه تصلّب تماماً، وقال، بصوت بارد كالحديد: "لن أفكر في أحد. ولن أراعي مشاعر ابن ليس من صلبي. لقد اختاروا الحرب، وأنا لن أُهزَم".

وقفت كلير صامتة، وقد أدركت أن الكلمات لم تعد تصل إلى مكان يمكنها أن تؤثر فيه، وتركها يوهان وحيدة في منتصف الصالة، وخرج، وشغّل سيارته، وانطلق بها بسرعة جنونية في شوارع لم يعرف إلى أين تقوده بالضبط.

قاد لساعة كاملة، بلا وجهة، يدور في شوارع المدينة كحيوان جريح يتخبط بحثاً عن مكان يخفي فيه ألمه، يتجاوز إشارات حمراء دون أن يشعر، ويضغط على المقود بقوة حتى تكاد أصابعه تنغرز في الجلد، وعيناه تلمعان بشيء أقرب إلى الجنون منه إلى الحزن. مرّ، دون أن يقصد، بالطريق الساحلي نفسه الذي علّم فيه ينال كريم القيادة يوماً، وبالمطعم الذي احتفلا فيه بأول موقف ناجح، وشعر، عند كل معلم من تلك المعالم، بموجة جديدة من الغضب تجتاحه، كأن المدينة كلها قد تحولت فجأة إلى متحف صغير لخيانة لم يكن يعرف حجمها الحقيقي بعد. حاول

أن يستحضر كلمات كلير، أن يهدئ من روعه، أن يفكر بعقل بارد كما اعتاد دائماً؛ لكن النار التي اشتعلت بداخله منذ رأى تلك الصورة المجمّدة على الشاشة لم تكن من النوع الذي يخمده منطق أو حكمة أخت حانية.

توقف أخيراً على جانب الطريق، وأخرج هاتفه بيد لا تزال ترتجف، واتصل بمحاميه، وأمره بصوت لا يقبل أي اعتراض: "اتخذ كل الإجراءات اللازمة. قدّم الأوراق للنيابة العامة اليوم، الآن، بلا تأخير. أريده أن يدفع ثمن كل شيء."

تحركت الشرطة خلال ساعات قليلة، بالسرعة التي تتحرك بها دائماً حين يكون المبلّغ رجلًا يملك من النفوذ ما يكفي لتسريع كل شيء. صدرت مذكرة بحث وتحرٍّ رسمية بحق ينال، وبدأت دوريات تتوزع على المطارات والمعابر الحدودية، بينما فتحت النيابة العامة ملفاً كاملًا يضم الأوراق التي قدّمها محامي يوهان: الرهن العقاري المزيّف، الوثائق المزوّرة، وكل التفاصيل التي أبقاها يوهان طي الكتمان طوال أسابيع، صارت الآن، فجأة، ملكاً للعالم كله يقرأه من شاء.

لم يظهر شيء جديد. لا أثر لينال في أي مطار، ولا في أي معبر حدودي، ولا في أي فندق راجعته الشرطة في الأيام الأولى. ولا أثر لسيلين عند يوهان، رغم كل الاتصالات، وكل الأسئلة، وكل الليالي التي أمضاها يقظاً يحدّق في هاتفه المظلم منتظراً رسالة لم تصل.

بدأت تحقيقات الشرطة رسمياً في اليوم التالي، بضباط هادئي الصوت حادّي النظراتجلسوا في صالة بيته نفسها التي شهدت، قبل أسابيع قليلة فقط، عشاءً هادئاً وضحكات عائلية خفيفة حول سؤال بدا يومها مجرد لعبة كلمات بريئة. سأله الضابط الأول، رجل خمسيني بعينين لا تفوّتان تفصيلة واحدة، عن آخر مرة رأى فيها زوجته، وعن طبيعة

علاقتهما في الأسابيع الأخيرة، وعن سبب استعانته بمراقب خاص قبل أن يلجأ إلى الشرطة. أجاب يوهان عن كل سؤال بهدوء مدروس، ينتقي كلماته بعناية من اعتاد أن يقف أمام مجالس إدارة أكثر تطلباً من أي محقق، لكنه لاحظ، وهو يفعل ذلك، أن الضابط يدوّن كل إجابة بصمت طويل، وكأنه يقارن، دون أن يصرّح بذلك، بين رواية زوج قلق ورواية رجل يعرف أكثر مما يقول.

وبينما كان يوهان يجيب عن أسئلتهم بهدوء مصطنع أتقنه طوال حياته، لم يكن يعرف بعد أن القصة التي بدأت تتشكل حول ذلك البيت، من زوايا لا يراها، كانت أعقد بما لا يقاس مما تخيله في أعتى ليالي جنونه، وأن الحقيقة، حين تصل أخيراً، لن تشبه أياً من السيناريوهات التي عذّبته بها تلك الليلة الطويلة في الظلام.

فالإنسان، حين يبني يقينه على أنقاض شكّ قديم، نادراً ما يسأل نفسه إن كان اليقين الجديد أصلب من سابقه، أم أنه فقط أشد إتقاناً في التنكر بزي الحقيقة.

الفصل الثامن

إعادة كتابة اليقين

مرّ أسبوعان كاملان دون أثر واحد يستحق الاسم، أسبوعان تحوّل خلالهما بيت يوهان إلى ما يشبه محكمة صامتة، يرتادها ضباط جدد كل يومين، يطرحون الأسئلة نفسها بصياغات مختلفة، ويدوّنون في دفاترهم إجابات لم تعد تحمل أي جديد. الحقيقة، حين تتأخر طويلًا عن الظهور، لا تترك الفراغ خالياً؛ فالناس يملؤونه بأنفسهم، برواياتهم هم لا برواية أصحاب القصة الحقيقيين.

تسرّبت القصة، كما توقّع يوهان أن تتسرّب رغم كل حذره، إلى دوائر أوسع مما أراد: تعليقات همست بها زوجات شركائه في حفلات لم يعد يحضرها، ونظرات شفقة ممزوجة بفضول لم يستطع تجاهلها في كل مكان ذهب إليه. أدرك، بمرارة متأخرة، أن الفضيحة التي حاول طوال أشهر أن يتجنّبها بأي ثمن، كانت قد وقعت على أي حال، بشكل أسوأ بكثير مما تخيّله يوماً: لا كخيانة يمكن دفنها بصمت، بل كلغز عام يتناقله الجميع بلا رحمة.

كان كريم يتصل به من لندن كل يوم تقريباً، بصوت يزداد توتراً مع كل مكالمة، يسأل عن أي جديد، ويهدد بترك دراسته والعودة فوراً، فيمنعه يوهان بصوت يحاول أن يبدو حازماً واثقاً، رغم أنه لم يعد يعرف بأي شيء يثق. "ابقَ هناك يا كريم، سنجدها، أعدك". كانت الجملة نفسها التي يكرّرها كل يوم، حتى فقدت، في أذنيه هو قبل أذنَي ابنه، معظم معناها الأول.

كانت كلير، طوال الأسبوعين الماضيين، حاضرة كعادتها، تمرّ كل يومين تقريباً، تطبخ له وجبة لا يلمسها، وتجلس معه ساعات تستمع فيها إلى نظرياته المتجدّدة، وتردّد الجملة نفسها في كل مرة بصوت حانٍ لا يتزعزع: "ستجدها يا أخي، لا تفقد الأمل، ستعود قريباً، أنا متأكدة". لم يكن يوهان، في تلك اللحظات، يلاحظ شيئاً غريباً في هدوئها الثابت وسط كل تلك الفوضى؛ فقد اعتاد، طوال حياته، أن يرى في ثبات أخته مرفأً آمناً، لا سؤالًا يستحق أن يُطرح. وكم من الثبات، فيما بعد، يكتشف المرء أنه لم يكن طمأنينة، بل تدريباً طويلًا على الإخفاء.

وُجِد ينال أخيراً، لكن ليس بالطريقة التي توقّعها يوهان. سلّم ينال نفسه بنفسه إلى الشرطة، بعد أن علم بمذكّرة البحث الصادرة بحقّه، منهاراً، هزيلًا، بلحية غير محلوقة ووجه شاحب أرهقته أسابيع من العزلة أكثر مما أرهقه الهرب نفسه. طلب يوهان أن يحضر جلسة استجوابه، فسُمح له بذلك بصفته المشتكي، وجلس خلف زجاج عازل يراقب صديق عمره القديم وهو يجيب عن أسئلة المحقق بصوت متهدّج لكنه واضح تماماً. لم يكن ذلك الزجاج، في الحقيقة، أول حاجز شفاف يفصل بين الرجلين؛ فقد عاشا، طوال عشرين عاماً من الصداقة، خلف زجاج من نوع آخر، أرقّ وأخطر: زجاج الثقة العمياء، الذي لا يُرى إلا حين يبدأ، كما يحدث الآن، بالتصدّع.

"لم أكن مختبئاً بمعنى الهروب من جريمة يا سيادة المحقق"، قال ينال، ويداه متشابكتان أمامه على الطاولة. "كنت أمرّ بحالة نفسية صعبة جداً، بعد سلسلة من الخسائر المالية لم أفهم سببها حتى الآن، فأغلقت هاتفي، واستأجرتُ شاليهًا صغيراً في الجبل، بعيداً عن كل شيء، هرباً من ضغوط لم أعد أحتملها. بعد أيام قليلة هناك، علمت، عبر معارف مشتركة، بما حدث لسيلين، وعلمت أيضاً أن صديقي، وأخي يوهان، قدّم

شكوى رسمية ضدي. حينها فقط قررت أن أبقى مختبئاً، لا لأنني أخفي جريمة، بل لأنني خفت، خفت من السجن، لا أكثر ولا أقل. لم أهرب مع أحد، ولم أتحدث إلى سيلين منذ أسبوع كامل قبل اختفائها، وكانت تلك المرة الأخيرة في بيتها، بحضور زوجها وأخته كلير، في عشاء عادي لا يخفي شيئاً."

وقف يوهان خلف الزجاج، يستمع إلى كل كلمة، ويشعر بشيء يتصدّع ببطء في يقينه الذي بناه بعناية طوال أشهر. كان صوت ينال، في تلك اللحظة، صادقاً بدرجة يصعب تزييفها، صادقاً بذلك النوع من الصدق الذي لا يُتقَن أداؤه أمام محقق شرطة متمرّس يعرف الفرق جيداً بين الكذب والانهيار الحقيقي. وتذكّر يوهان، فجأة، ذلك العشاء بالذات، تلك الليلة التي طرح فيها سؤاله عن الخيانة بابتسامة خفيفة، وشعر بغصّة باردة تسري في معدته وهو يدرك أن ينال كان صادقاً في كل كلمة قالها تلك الليلة أيضاً. ثم قال في نفسه: "لا، إنه كاذب، إنه ممثل بارع، من أتقن دور الأخ عشرين عاماً، لن يعجز عن إتقان دور البريء المظلوم عشرين دقيقة". وهكذا فعل اليقين، مرة أخرى، ما يفعله دائماً حين يُهدَّد: لم يتراجع، بل تسلّح.

طلب يوهان أن يدخل ليتحدّث إلى ينال شخصياً بعد انتهاء الاستجواب الرسمي، فسُمح له بذلك تحت إشراف ضابط واقف عند الباب. جلس أمام صديقه القديم، وسأله بصوت خفيض متعب: "أقسم لي يا ينال. أقسم أنك لا تعرف مكانها". رفع ينال عينيه المحمرّتين إليه، وقال: "أقسم لك برحمة أمي، يوهان، لا أعرف أين سيلين. ولا أعرف أيضاً، حتى هذه اللحظة، لماذا ظننتني قادراً على خيانتك بهذا الشكل. أكثر من عشرين عاماً من الصداقة، ومع ذلك أخذتَ الكلامَ عنّي بهذه السهولة؟"

لم يقتنع يوهان بعد تماماً. شدّ فكّه، وأمسك بحافة الطاولة الحديدية بين يديه حتى تصلّبت أصابعه كأنه يقبض على الجمر، وقال، بصوت بدأ يرتفع رغماً عنه: "لا تنكر أنها زارتك، قبل اختفائها بأسبوع، في منزلك، ومكثت عندك ساعة كاملة. وحين سألتها أين كانت، أجابتني أنها كانت في السوق". توقّف ينال للحظة، وأغمض عينيه، وكأنه يستحضر تلك الساعة بالذات، ثم فتحهما، ونظر إلى يوهان نظرة مثقلة بألم من نوع مختلف تماماً عن الخوف الذي حمله طوال الجلسة.

"أنت، في تلك الفترة، كنت تخنقني اقتصادياً ومهنياً، وتهدّدني بطريقة غير مباشرة بأوراق تقودني إلى السجن، دون أن أفهم لماذا. اشتكيت همّي لسيلين ذات يوم، كما يشتكي المرء لأخته، فشعرت، على ما يبدو، أن عليها أن تساعدني كأخٍ وصديق للعائلة. زارتني تلك الساعة لتعرض عليّ دعماً مالياً سرياً، من وراء ظهرك، لتساعدني أعبر تلك المرحلة دون أن تجرح كرامتي بمعرفتك. رفضته بالطبع، لم أستطع أن آخذ مالًا من زوجة صديقي بهذه الطريقة. لكنها، يوهان، كبرت في عيني ذاك اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأن ما فعلته، في اعتقادها هي، لم يكن سوى شفقة خالصة وولاء لسنوات الصداقة. المشكلة أن الشيء نفسه، حين نظرت أنت إليه من زاويتك، بدا خيانة عاطفية كاملة الأركان. المسكينة أدانت نفسها بيديها وهي تحاول أن تفعل خيراً". وربما هذا أقسى ما في الأمر: أن الفعل الواحد يمكن أن يكون، في آنٍ معاً، بطولة في عين صاحبه، وجريمة في عين من يراقبه من بعيد.

جلس يوهان صامتاً، يداه لا تزالان متشبثتين بحافة الطاولة، وشعر بشيء يهوي بداخله ببطء، كحائط قديم ينهار حجراً بعد حجر لا دفعة واحدة. كان يحاول جاهداً أن يتمالك نفسه ولا يفرّغ غضبه أمامه، فسأله بحدّة مكتومة: "إلى أين ستصلان بالكذب؟ أيَجدر بي الآن أن أصدّق هذه

المسرحية اللعينة وعلى هاتفي دليل خيانة عمره ثمانية عشر عاماً؟ دليل قاطع لا كذب فيه". نظر إليه ينال باستغراب وابتسم: "عن أي دليل تتكلّم؟" هزّ يوهان رأسه وأجاب: "ستعرف في الوقت المناسب."

وقف يوهان استعداداً للانصراف، وما إن سار بضع خطوات نحو الباب، حتى استوقفه صوت ينال وهو يقول: "لا أريد أن أُفهَم خطأً، لكن في آخر لقاء لي مع سيلين، أخبرتني أن لديها شكوكاً حول كلير."

التفت يوهان نحوه ووجهه يعلوه الانزعاج: "ما هذا الهراء الذي تقوله؟ أبقِ فمك مقفلًا، ولا تأتِ بسيرة أختي على لسانك". استغرب ينال أسلوب يوهان، ورغم ذلك أجابه: "اسمعني، أنا لا أتهم كلير بشيء، لكنني أنقل لك ما قالته لي سيلين". أطلق يوهان زفيراً طويلًا من أنفه، ثم قال، كاتماً غيظه: "أكمل"، فقال ينال: "لا، هذا كل ما لديّ. وإذا أردت، تحرَّ بنفسك. ونصيحة مني، إن كنت لا تزال تهتم بنصائحي كالسابق: لا تواجه كلير فوراً، راقبها فقط."

قبل أن يكمل ينال كلامه، استلّ يوهان هاتفه واتصل بمروان، وطلب منه أن يراه في مكتبه.

طار إلى المكتب، فوجده ينتظر في غرفة السكرتاريا. دخلا المكتب، وأغلقا خلفهما الباب. وكلّفه بمهمة جديدة: مراقبة كلير!

بعد خروج مروان وانطلاقه إلى مهمته الجديدة، لم يجد يوهان جواباً لزحمة الأسئلة التي تتصارع في رأسه، لكنه أدرك، في تلك اللحظة بالذات، حقيقة أخرى أثقل بكثير: أن براءة ينال من تهمة الهروب مع سيلين لن تنجيه من التهمة الأخرى، تلك التي بناها يوهان بنفسه من أوراق حقيقية لا علاقة لها بالخيانة المتخيَّلة؛ فالرهن العقاري المزوَّر يبقى جريمة قائمة بذاتها، بعيداً تماماً عن كل ما تبيّن الآن أنه لم يكن سوى وهم. كم من

العدالة تُبنى هكذا، فوق أساس منهار، وتبقى قائمة رغم ذلك، لأن الأوراق، خلافاً للقلوب، لا تعرف كيف تتراجع.

قال له المحامي، حين اتصل به يوهان يسأل إن كان بالإمكان سحب الشكوى: "الملف لم يعد بين يديك يا سيد يوهان. بمجرد أن قدّمناه للنيابة العامة، أصبحت الدولة هي المدّعية، لا أنت. يمكنك أن تشهد لصالحه، أن تخفّف من قسوة روايتك، لكن الوثائق نفسها لا تكذب، ولن يُسقطها تراجعك عن الغضب". جلس يوهان طويلًا بعد تلك المكالمة، يشعر بوزن ما فعله يهبط عليه دفعة واحدة: إن صحّ كلام ينال واتضح أنه بريء، فكيف سيدفع، بسببه، سنوات من عمره في السجن؟

جلس في المساء مع كلير، منهاراً من جديد، يروي لها كل ما سمعه في جلسة الاستجواب، باستثناء ما قاله ينال قبل أن يتركه، وسألها، بيأس رجل نفدت منه كل الاحتمالات: "كلير، هل تتذكرين أي شيء غريب قالته سيلين لك في الأسابيع الأخيرة؟ أي شيء على الإطلاق؟" لاحظ، للحظة عابرة، أن يدها توقّفت عن تحريك كوب الشاي الذي كانت تمسكه، سكوناً صغيراً لم يدم أكثر من نصف ثانية، قبل أن تجيب، بهدوئها المعتاد: "لا شيء يا يوهان، كانت طبيعية تماماً في آخر مرة تحدّثنا فيها". الحقيقة، حين تكون خطيرة بما يكفي، لا تحتاج أكثر من نصف ثانية لتُفشي نفسها؛ المشكلة أن معظمنا لا يملك الوقت، أو الرغبة، ليلاحظ نصف الثانية تلك.

لم يكن يوهان، في تلك اللحظة، قد تأكد من شكوكه التي تركها ينال له بعد؛ لكن شيئاً في تلك السكنة الصغيرة بقي عالقاً في ذاكرته دون أن يعرف لماذا. كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا حين خرجت كلير من منزله، لكنها، حسب مروان، لم تذهب إلى منزلها، رغم إظهارِها التعبَ وسَطوةَ النعاسِ عليها. كانت وجهتها عكس طريق المنزل تماماً؛ إنها تتجه نحو الجبل. رافقه يوهان على الهاتف أثناء تتبّعه لها، وفي تلك الأثناء، تذكّر

يوهان هذا الطريق: إنه يفضي إلى عقار صغير في منطقة جبلية، مسجَّل باسم كلير وحدها، أورثتها إياه والدتهما منذ أكثر من عشر سنوات، عقار لم يذكره أحد أمامه يوماً، ولم يخطر بباله يوماً أن يسأل عنه.

لم يضيّع وقته في تبديل ملابسه؛ خرج من منزله كما هو، واكتفى بأخذ هاتفه ومحفظته ومفاتيح سيارته، وقاد بسرعة جنونية نحو ذلك العنوان. وما إن وصل إلى منتصف الطريق، حتى اتصل به مروان مرة أخرى، ليعلمه أن الآنسة كلير دخلت الموقع حاملة كيساً لا يعلم محتواه، ولم تمضِ خمس دقائق حتى خرجت وتحرّكت من الموقع. أمر يوهان مروان أن يتبعها، وبقي هو متوجهاً نحو ذلك البيت، يسأل نفسه: "هل من المعقول أن كلير وسيلين متفقتان عليّ؟"

بيت صغير معزول في منطقة جبلية هادئة، خلف سياج حديدي صدئ لم يُصلَح منذ سنوات، والقلق يعتصر صدره بقوة لم يعرفها من قبل، مزيج غريب من الأمل والخوف لا يعرف أيهما أثقل. وقف أمام الباب الخشبي القديم، وقلبه يخفق بعنف يكاد يسمعه هو نفسه، ويده ترتجف وهي تدفع الباب غير الموصد تماماً. دخل ممراً ضيقاً مظلماً، ورائحةُ الغبار والرطوبة تملأ أنفه. وتحت ثقل تلك الرائحة والعفن، كان هناك خيطٌ رفيعٌ آخر كاد يفلت من انتباهه: رائحةُ كحولٍ طبيٍّ خافتة، لا تنتمي بأيِّ منطقٍ إلى بيتٍ جبليٍّ مهجور، بل إلى مكانٍ آخر تماماً لم يستطع، في هلعه، أن يسمّيه.

نادى باسمها بصوتٍ متهدّج، فسمع من غرفةٍ بعيدةٍ في عمق البيت صوتاً خافتاً ضعيفاً، لكنه، بلا أدنى شك، صوتُها هي.

أجل، إنه صوتُ سيلين.

مضى يقفزُ أثرَ الصوتِ بلهفةِ المصدوم، فيما كانت رائحةُ الرطوبة والعَفَن تتصاعدُ في أرجاء البيت المهجور، تهمسُ له بتهديداتٍ مبهمة كأن المكانَ يلفظُ وجودَه. كانت الظلمةُ الدامسةُ تسعى لعرقلة خطاه، غيرَ أن صوت سيلين الخافت كان يشقّ العتمة، واعداً بافتضاحِ سرٍّ يتوارى خلف الباب.

كان الباب مقفلًا من الخارج بقفل بسيط كسره يوهان بكتفه دون تردد. وجدها في غرفة صغيرة مغلقة، جالسة على سرير حديدي قديم؛ سريرٍ يشبه، بإطاره المعدني البارد وحوافه المرتفعة قليلًا عن المعتاد، تلك الأسرّة التي لا يراها المرء عادة إلا في أروقة المستشفيات، لا في بيوت الجبال المهجورة، وهي ملاحظةٌ عابرة غاصت فوراً تحت وطأة المشهد كله.

كانت شاحبة، هزيلة بشكل يفزع، شعرها غير مصفّف منذ أيام طويلة، وعيناها غائرتان محاطتان بهالتين داكنتين تشبهان تماماً ما رآه في مرآته هو نفسه في الأسابيع الأخيرة. وعلى طاولة صغيرة قربها بقايا طعام وماء تكفي بالكاد لإبقائها على قيد الحياة، لا أكثر. كأنّ الأسر، حين يطول، يترك على الوجوه البصمة نفسها، سواء كان القيد من حديد أو من شكّ.

"يوهان؟" همست باسمه بصوت متصدّع، وكأنها لا تصدّق أنه حقيقي أمامها. اندفع نحوها، وركع عند السرير، وأمسك بوجهها بين كفّيه، وعلامات الذهول تتراقص على وجهه بلا سيطرة، بعد أسابيع طويلة من التحكّم الكامل بكل انفعال. جلس على حافة السرير، وشعر برغبة عارمة في أن يضمّها إليه، لكنه تردّد ومنع نفسه من الاقتراب، رغم أنه لاحظ أن جسدها النحيل يرتجف.

لكن يوهان، وسط كل هذا، شعر بارتياح لا يوصف لاكتشافها حيّة، ووجد السؤال الذي طارده طوال أشهر يتسلّل إلى شفتيه قبل أي سؤال آخر: "سيلين... هل خنتني معه؟ مع ينال؟ أخبريني الحقيقة الآن، أرجوك، أحتاج أن أعرف."

نظرت إليه سيلين نظرة طويلة، بين الذهول والألم، وكأن السؤال نفسه، بعد كل ما مرّت به، كان أقسى من الأسر نفسه. " أنا لم أخنك يوماً. لا مع ينال، ولا مع أي رجل آخر على وجه الأرض"، ثم، بصوت بدأ يستعيد ثباته رغم إرهاقها، أضافت: "دعني أخبرك كيف وصلت إلى هنا، قبل أن تسألني أي شيء آخر."

أخرج يوهان هاتفه ليتصل بالإسعاف، فأمسكت سيلين بمعصمه بقوة فاجأته. "ليس بعد. أرجوك، أحتاج أن أخبرك كل شيء أولًا". وعدها بالانتظار، وجلس يستمع.

"في الأسابيع الأخيرة، شعرت أن هناك من يراقبني، رجلًا رأيته أكثر من مرة يظهر في أماكن أمرّ بها بالصدفة أكثر مما تسمح الصدفة نفسها. عرفت لاحقاً أن اسمه مروان، حين سمعتك تلفظه في مكالمة هاتفية لم تنتبه إلى أنني كنت قريبة منك حين أجريتها. وفي الوقت نفسه، كنت أنا أيضاً أقوم بتحرياتي الخاصة، لفكّ لغز تغيّر حالك معي ومع كريم. نجاة رأتها تدخل غرفتنا ليلة عيد ميلادك، لم أعلّق ولم أكترث للأمر، لكن بعد أن رأيتك تتغيّر وتغيّر أسلوبك معنا، بدأت أربط الأمور ببعضها، سألتها عن سبب دخولها غرفة نومنا بلطف، فتلعثمت للحظة قبل أن تجيبني بأنها أرادت أن تستعير دبوس شعر، وكان رأسها لا يحتاج إلى دبوس إضافي. لم أصدقها طبعاً. بدأت أبحث بنفسي، بهدوء، عن كل ما يخصها. أوهمتها بأنني عرفت كل شيء وكشفتها، ولأن شقيقتك ليست ذات خبرة كافية في التمثيل، اعترفت لي بكل شيء، لكنها لم تسمح لي

بالعودة إلى المنزل؛ رأيتها فجأة تحقنني بإبرة تُعطى عادة للنساء اللواتي يخضعن لعملية قيصرية، ولم تمضِ معي بضع ثوانٍ حتى استسلمت للنوم. لا أدري كم ساعة مرّت وأنا نائمة، وحين بدأت عيناي تُفتحان، وجدت نفسي هنا، في هذه الغرفة."

سألها: "لكن كيف؟"

أغمضت سيلين عينيها من التعب، تنفّست عَميقاً، ثم تابعت: "كلير هي من رشّت عطراً يشبه عطر ينال على مخدّتك، وهي من دسّت ساعته التي نسيها في الحمام بين طيّات شرشف سريرنا ليلة عيد ميلادك. أختك هي التي زرعت في عقلك الشكّ، وأوهمتك، دون أن تنطق بحرف واحد، أنني خنتك مع صديق عمرك. ما حدث معك يشبه مرض نقص المناعة الذاتية، الجسد يهاجم خلاياه السليمة بناءً على إنذار كاذب!. عقلك أخذ يهاجم كل ذكرياتك ويعيد كتابتها.. النظرة البريئة أصبحت شفرةً غرامية، والكلمة العابرة أصبحت دليلًا جنائياً، أنت لم تعد تبحث عن الحقيقة أبداً، بل تبحث بلهفة عمّا يغذّي شكّك، حتى وصلنا لنقطة اللا عودة."

سألها: "لنفترض أنك صادقة، لماذا خرجتِ متخفّية من المنزل يوم اختفيتِ؟"

توقفت للحظة، ودمعة انزلقت على خدها الشاحب. "أدركت أن هناك رجلًا يراقبني، ورجّحت أنك أنت من كلّفه. لم أرد أن يتبعني إلى كلير، لم أرد أن تعرف أنت بما اكتشفته قبل أن أتأكد بنفسي وأواجهها وجهاً لوجه. فتنكّرت، وخرجت من الباب الخلفي الذي لا يراقبه أحد، وذهبت إليها مباشرة، وواجهتها بكل ما عرفته، وأعطيتها مهلة أسبوع لتخبرك أنت بنفسك، وإلا سأفعل أنا ذلك. لم يكن اختطافي جزءاً من أي خطة لديها، يوهان، أنا متأكدة من هذا. لكنها خافت، خافت بعد مواجهتي لها أكثر مما

تخيّلت يوماً أن تخاف كلير من أي شيء، خدّرتني، ولا أعلم كيف نقلتني إلى هنا وحبستني. تأتي ليلًا مرة كل يومين بطعام قليل وماء، تتوسل إليّ أن أهدأ، أن أعطيها وقتاً لتجد حلًا، وكأنّ حلًا لسرٍّ كهذا يمكن أن يوجد أصلًا."

جلس يوهان صامتاً، والهاتف لا يزال في يده، يشعر بالغرفة كلها تدور من حوله ببطء. "قلتِ إنها اعترفت لك، ألم تقل لك عن الأسباب التي دفعتها لفعل كل هذا؟" سألها، بصوت بالكاد يخرج من حلقه.

أخرج هاتفه بيد لا تزال ترتجف، وأراها تلك الرسالة التي غيّرت كل شيء: نتيجة الفحص. الرقم صفر. "إذن كيف تفسّرين هذا؟ كريم ليس ابني بيولوجياً، سيلين. الفحص قاطع". نظرت سيلين إلى الشاشة طويلًا، وقالت، بصوت هادئ منهك لا يحمل أي غموض في نبرته، جملة ستقلب كل ما ظنّه يوهان يقيناً رأساً على عقب:

"اسأل أختك."

صرخ بوجهها: "أنا أسألكِ، أجيبي."

لم تُجب سيلين فوراً؛ نظرت إليه نظرة طويلة مثقلة بشفقة غريبة، شفقة من تعرف أنها على وشك أن تسحب البساط من تحت كل ما ظنّه زوجها حقيقة ثابتة طوال ثمانية عشر عاماً، وقالت أخيراً: "اجلس جيداً يا يوهان. لأن ما سأقوله لك الآن سيجعلك تعيد النظر في كل شيء تعرفه عن حياتك، عن كريم، وعن الشخص الذي وثقت به أكثر من أي إنسان آخر على وجه الأرض."

جلس يوهان على الأرض الباردة، ظهره إلى حافة السرير، ويدا سيلين النحيلتان تمسكان بيده بقوة لم يتوقعها من جسد بهذا الإرهاق، واستعدّ، للمرة الأولى منذ أشهر طويلة من اليقين الكاذب، لسماع شيء

لم يكن أي جزء منه، مهما بلغت خبرته في قراءة الناس والأرقام والعقود، قد تدرّب يوماً على مواجهته.

فبعض الحقائق لا تنتظر أن تُكتشف؛ بل تنتظر، بصبر لا يعرفه إلا الزمن نفسه، اللحظة الدقيقة التي يصبح فيها من يسمعها جاهزاً أخيراً لأن ينهار من أجلها. وبعض الرجال، حين يكتشفون أخيراً أنهم بنوا حرباً كاملة على عدوٍّ بريء، لا يشعرون بالراحة لأن الحرب انتهت، بل بشيء أثقل بكثير: أن يسألوا أنفسهم من كان العدو الحقيقي طوال الوقت، بينما كانوا يوجّهون كل سهامهم نحو الاتجاه الخطأ تماماً.

وربما هذه هي المفارقة الأقسى في حياة كل رجل ظنّ يوماً أنه يعرف كل شيء: أن يكتشف، في لحظة واحدة، أن يقينه لم يكن سوى رأيٍ ارتضاه لنفسه لأنه أراحه من عناء الشكّ؛ وأن الشجاعة الحقيقية لم تكن يوماً في الثبات على ما نعرفه، بل في القدرة على أن نعيد، حين يلزم الأمر، بناء كل شيء من الصفر.

الفصل التاسع

الوريث الحقيقي للسر

تموز 2006

في الحروب الكبرى، لا يموت الناس دائماً بالطريقة التي ترويها نشرات الأخبار؛ فالموت لا يحتاج بالضرورة إلى صاروخ يشق السقف، ولا إلى شارع يتبخر في ثانية ليصير ركاماً قاتماً، ولا إلى جثة يابسة ملفوفة بكفن على قارعة الرصيف. أحياناً، يكفي أن ينبض التيار الكهربائي نبضه الأخير في ممرات المشفى، وأن تمتلئ المشارح وأروقة الطوارئ بأجساد جامدة لا يجد أحد متسعاً لرفعها، وأن تستحيل أصوات القصف البعيد جزءاً من نسيج الصمت، خلفية رتيبة يعمل الأطباء تحت وطأتها كأنهم تروس في آلة عتيقة صدئة لا مهرب من دورانها.

في تلك الليلة المنصهرة من تموز، كانت رائحة المشفى مزيجاً خانقاً من سائل اليود، والغبار المحروق، والعرق الممزوج بالخوف. طنين المولد الاحتياطي يهزّ له البلاط المائل إلى الصفرة، والممرات تغصّ بأجساد تتدافع بلا اتجاه: أمهات يعتصمن بأطفال واجمين كفّت ألسنتهم عن البكاء، ورجال أضناهم السهر يفتشون بحدقات زائغة عن أسماء في قوائم مبتورة عُلّقت على الجدران، وممرضات بسترات ملطخة بالدم الجاف يركضن بين أسرّة طافحة بالجراح، بينما تتنقل أوجه الأطباء بين إعياء قاتل وواجب صارم، دون أن تملك أرواحهم رفاهية التوقف للاختيار.

في أقصى جناح الولادة، حيث العتمة أشد والرائحة أثقل برائحة الدم الثقيلة، كانت سيلين مستلقية على سرير معدني بارد، أصابعها المرتجفة

تعتصر حافته الصدئة، وأظافرها تحفر طلاءَه الأسود، فيما تصعد في جسدها التقلصات كأمواج من زجاج مكسور لا تدع لها منفذاً لالتقاط زفير واحد.

إلى جوارها وقف يوهان، أملس الملامح، أصغر بسنوات، لكنه كان يحمل في حضورِه وتقاطيع وجهه اليقينَ الطبقي المهيب نفسه الذي سيرافقه بعد ثمانية عشر عاماً: ذلك الشعور الغريزي الموروث بأن العالم، مهما بلغت فوضاه ومهما انهارت سقوفه، مسخر في النهاية ليخدم أمثاله، وأن الأشياء ستجد حتماً طريقها للانصياع لإرادته.

خارج الباب الزجاجي المضبب، كان والده يذرع الممر ذهاباً وإياباً. لم يكن مشيه يشي بقلق الجد الذي ينتظر حفيده الأول صدفة، بل بحزم رجل يعرف تماماً أن امتداد السلالة وحفظ الاسم ليسا شأناً عاطفياً بحتاً، بل عملية إعادة إنتاج صارمة للمكانة والسلطة. في عائلتهم، لم يكن الأطفال يولدون كما يولد سائر البشر؛ كانوا يولدون محمَّلين بشفرات ورموز تُثقل أجسادهم الطرية قبل أن تنطق ألسنتهم. لم يكن أحد يصرّح بذلك، وكان هذا الصمت المُطْبَق تحديداً هو مصدر قوته القاهرة.

فتحت سيلين عينيها بصعوبة بالغة، وتشقّقت شفتاها اليابستان عن صوت خافت كحفيف ورق جاف: "أريد... أن أراه"...

دنا يوهان منها، مسح العرق البارد عن جبينها بمنديل ناعم، وابتسم ابتسامة واثقة تسكب هدوءاً مصطنعاً، وإن لم تُخفِ ارتعاشة خفيفة في زاوية فمه:

"سترينه... عمّا قريب. أعدك".

فجأة انفتح الباب الضيق، وهبط منه الطبيب الشاب، خطيب كلير؛ شاحب الوجه، غائر العينين تحت نظارته ذات الإطار المعدني، وعلى وجنتيه آثار إرهاق شديد تجعله يبدو للوهلة الأولى أصغر بكثير من عمره المهني. نظر إلى يوهان نظرة متلعثمة، ثم سرح ببصره صوب الأب القابع في نهاية الممر، قبل أن يعود بعينين مرتعشتين إلى قفازَيهِ الملطخين.

" الولادة كانت بالغة التعقيد..." قالها بنبرة مضطربة، وهو يتجنب عينَي يوهان.

نهض يوهان بجسد متوتر: "لكنها بخير؟ سيلين بخير؟"

تردد الطبيب، وكان ذلك التردد الخاطف، في لحظة كهذه، كافياً لزلزلة الهواء في الممر.

"سيلين على قيد الحياة... لكننا واجهنا مضاعفات خطيرة جداً. حدث نزيف حاد لم نستطع كبحه... اضطُررنا لاستئصال الرحم. لن تتمكن من الإنجاب مرة أخرى".

توقف الزمن عند يوهان. لم ينظر إلى عيني صهره الطبيب، بل شخص ببصره نحو الباب، نحو الغرفة التي شهدت دخول زوجة كانت حُبلى بكل احتمالات المستقبل، لتخرج منها بعد دقائق معدودة وقد سُلبت منها تلك الإمكانية الأبدية.

"والطفل؟" سأل يوهان بصوت غريب لم يتعرف عليه هو نفسه.

صمت الطبيب، وأطرق برأسه. خشي أن يكون خبر وفاة الجنين الضربةَ القاضية التي تحطم كبرياء هذه العائلة في هذه الليلة بالذات، فآثر في عقله الباطن أن يترك هذه المهمة العسيرة لكلير. اكتفى بالتمتمة، وصوته يكاد لا يُسمع:

"الحالة حرجة جداً... وعلينا الانتظار".

دخل يوهان الغرفة. كانت سيلين ممددة على الفراش، وجهها بلون العاج الميت، وشفتاها ترتجفان. أمسكت يده بقوة تفوق ما كان يظنه ممكناً في حالها: "أين هو؟ يوهان... أين ابني؟"

خفض رأسه إلى الأرض، وكانت هذه أول مرة في حياته يكتشف فيها أن المال والسلطة والاسم المرموق، وكل رأس المال الرمزي الذي جمعه والده عبر عقود، لا يستطيع شراء كلمة واحدة تُرمَّم بها جراحٌ من هذا النوع.

"الطبيب يقول إن حالته حرجة... وعلينا أن ننتظر".

على بعد أمتار قليلة، في غرفة مجاورة لا يفصلها عن غرفة سيلين سوى جدار واحد، كانت امرأة أخرى قد وضعت حملها قبل ساعة. أصابتها شظية قاتلة في أعلى رأسها إثر غارة إسرائيلية دمّرت المبنى السكني الذي كانت تقطنه. وضعت طفلها ثم فارقت الحياة، بينما كان زوجها قد تحول قبل ساعات إلى أشلاء تحت أنقاض حارتهم في الغارة ذاتها. لم يقف أحد أمام بابها ليحمل أوراقاً أو يسأل الممرضة عن مصير الرضيع؛ كان صغيراً ضعيفاً، لكنه يتنفس بحرص.

كان المشفى يتداعى تحت ثقل الكارثة. الأوراق تتداخل، الأسماء تُمحى تحت قطرات الدم المنسكبة على الدفاتر، والأطفال يُنقلون في حواضن مؤقتة بلا بطاقات موثقة. في ظروف كهذه، يصير الخطأ أشهى وأيسر من أن يُكتشف. لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن خطأ عفوياً؛ كان قراراً صيغ ببرود قاتل.

وقفت كلير في الممر، بذراعين متشابكتين وعينين شاردتين. كانت هي من أشرفت على ولادة تلك المرأة الشهيدة، وسحبت جنينها الحي من رحمها المائت. دخلت غرفة سيلين، فرأت أخاها ينهار صامتاً بجانب زوجته. تفحصت وجه يوهان بنظرة أخوية ممزَّنة، فلمحت فيه شيئاً لم تره طوال عمرها فيه من قبل: لم يكن جزعاً مجرداً، بل انكساراً شديداً يتذلل فيه رجل اعتاد السيادة والامتياز، خوفاً من انقطاع سلالته.

أقبل خطيبها، وتمتم بصوت واهن، ويداه ترتجفان قليلًا وهو يخلع قفازيه:

"سيلين فقدت رحمها... وطفلها مات بعد الولادة بدقائق".

أغمضت كلير عينيها للحظة. كان ينبغي أن تحزن على أخيها وزوجته، وقد شعرت بحزن حقيقي فعلًا. لكن الحزن، حين يهجم على نفوس تسكنها مشاعر الحسد المكتوم وتنهشها شكوك المكانة، لا يأتي منفرداً؛ بل تتسلل معه أسئلة المنافسة المكتومة. أختٌ عاشت عمرها كله تحت ظل الأخ المميز الذي يرث كل شيء، المال والاعتبار وتقدير الأب، ترى الآن أن هذا الأخ مهدد بالضياع.

سألها خطيبها بصوت خافت، وقد شخصت عيناه إلى الأرض: "والطفل الآخر؟ طفل المرأة الميتة؟"

أجابت بجمود، دون أن يرتجف صوتها مقدار ذرة: "هو بخير... لكن أمه فارقت الحياة، ولا نعرف له نسباً ولا هوية".

تردد الطبيب، وابتلع ريقه بصعوبة: "نعم... للأسف".

لم تكن الكلمات سوى شرارة، التقطتها كلير كما يلتقط المرء حجراً من الأرض دون أن يعرف بعد ماذا سيفعل به. لم تكن المسألة في بدايتها

سؤالًا أخلاقياً يؤرق مضجعها، بل مصالح ورحمة معجونة بالرغبة في السيادة الرمزية. امرأة حُرمت الإنجاب نهائياً. طفل حي بلا والدين، مصيره ميتم بجدران باردة وسور عالٍ. طفل ميت. جدران مشفى تهتز بالقصف. وسرّ يمكن دفنه حياً في هوجاء الحرب.

قال الطبيب بوجل، وقد تراجعت قدمه خطوة إلى الوراء: "لا... هذا جنون! لا يمكننا فعل ذلك"!

قالت كلير، وهي تحدّق في عينيه بثبات مرعب، صوتها منخفض لكنه لا يقبل المساومة: "فكّر جيداً... هذا ليس جرماً، بل حلٌّ مكتمل".

"هذا ليس قرارنا يا كلير"!

"بل هو قرارنا نحن وحدنا! نحن الذين نمسك بمفاتيح هذه الليلة"!

"إننا نتكلم عن طفل حقيقي... عن حياة إنسان"!

"وأنا أعرف! ولهذا السبب بالذات أقول لك: سيلين لن تنجب مجدداً، وهذا الطفل الحي سيُرمى في ميتم يقضي فيه عمره بين القذارة والضياع. نحن لا نرتكب خطيئة، بل ننقذ طفلًا يتيماً، وننقذ عائلة من أن تنطفئ"!

كان خطيبها رجلًا طيباً، ولهذا تحديداً كان خداعه يسيراً هيّناً. الرجال الأشرار لا يحتاجون إلى مبررات لفعل المنكر، أما الطيبون فيكفي أن تُقنعهم بأن الخطيئة هي الصيغة الوحيدة المتاحة للرحمة.

بعد ساعات، سُحبت الأوراق من الملفات؛ اسمٌ يُشطب، ورقة تُبدَّل، وتاريخ ولادة يُعاد تثبيته. تحركت يد كلير بثبات غريب، بينما كان خطيبها يُغلق باب الحاضنة بيد تُبلِّلها الرعشة. قالت له، وهي تضع بطاقة المولود في جيبها: "لن يعرف أحد".

"أنا سأعرف... وأنت ستعرفين".

"وهذا يكفي." قالتها بنبرة خافتة، ثم أضافت: "سيكبر في بيت يغمره بالمال والعطف، وسيكون له أب وأم يملكان العالم... وسيلين ستبقى أماً".

خفض الطبيب رأسه، ولسانه يمتلئ بمرارة لا تُطاق: "تعرفين أن هذا باطل وخطأ جسيم".

أجابت كلير بهدوء يشبه الاستسلام: "أعرف." وكانت تلك أصدق لحظة عاشتها في حياتها؛ لم تُجمِّل الخطيئة، ولم تبحث لها عن مسميات براقة، بل قبلتها سلاحاً ستحتفظ به ليوم الحساب.

في صباح اليوم التالي، خرج يوهان من غرفة سيلين حاملًا بين ذراعيه المولودَ الذي سيُسمَّى كريم. لم يكن يعلم شيئاً؛ لم يدرِ أن الطفل الذي يحضنه ليس من صلبه، ولا أن ابنه الحقيقي قد دُفن في حفرة خلف المشرحة، ولا أن أخته كلير قد نسَجَتْ له مصيراً سيعيش داخله ثمانية عشر عاماً.

كان والده واقفاً عند باب السيارة المموَّهة بطين الحرب. نظر إلى الطفل الملفوف بدثار أبيض، ثم إلى يوهان، وقال بنبرة حاسمة، ووجهه ثابت لا يبتسم ولا يتجهم: "الحمد لله." كانت كلمة يقولها الجميع، لكنها في قاموس هذه العائلة تعني شيئاً آخر: النظام الطبقي لم ينهار. الاسم يستمر. البيت سيبقى قائماً. والوريث المشروع قد وصل.

***

تشرين الثاني 2011

مرت خمس سنوات. كبر كريم، وصار طفلًا نبيهاً يملأ الحديقة صخباً، يركض على العشب المشذّب بعناية، وينطق كلماته بتلك النبرة المثقلة بالكبرياء التي يلتقطها الأبناء دون وعي من هيئة آبائهم. وكان الجد يجلس في الشرفة يرقب حركاته وصوته، ويعلمه كيف يمسك بمقبض السوط أثناء ركوب الخيل، وكيف ينظر إلى الخدم بنظرة تجمع بين اللطف الحذر والافتراض الثابت بالتبعية. كان الأب يرى في كريم امتداداً تاماً لهابيتوس العائلة وسلوكها الموروث، كأن الدم نفسه يعزف الإيقاع ذاته.

في تلك الأيام، كانت التحضيرات جارية على قدم وساق لزفاف كلير. خمس سنوات انقضت على الحرب، وأخيراً سمحت كلير لنفسها أن تفتح باباً طالما أجّلته. كان العريس هو الطبيب نفسه؛ الرجل الذي شاركها السرّ العظيم، والحامل الوحيد لذنبها.

كان البيت العائلي يفوح برائحة ماء الزهر وماء الورد، ومعجنات الفستق المصنوعة يدوياً، وأثواب الدانتيل الأوف-وايت المطعّمة بلمسات من القصب الذهبي. فستان الزفاف المعلَّق في خزانة كلير كان قطعة فنية حاكتها أيادٍ بلجيكية، يشعّ بياضاً ناصعاً. توافدت العائلات الأرستقراطية المحلية للتهنئة، حاملة صواني الفضة المنقوشة، متبادلة لغة رفيعة من الطقوس الرمزية التي تؤكد انتماء الجميع للطبقة المختارة ذاتها.

لكن المساء الذي سبق الحفل بأربع وعشرين ساعة، حمل معه انكساراً آخر. جلس الطبيب مع كلير في غرفة المكتب الخلفية. نظر إليها بعينين

مثقلتين بالأرق، وقال بصوت مجهد: "بعد الزواج... يجب أن ننهي هذا الكابوس".

نظرت إليه كلير، وأصابعها تعبث بحافة المنديل الحريري بين يديها: "ماذا تقصد؟"

"السرّ. مرّت خمس سنوات يا كلير... يكفي. ضميري لم يعد يحتمل. كريم صار طفلًا يفهم، والعيش تحت هذه الكذبة يأكل روحي كل يوم".

كانت كلير تعلم أنه لا يريد إيذاءها، بل يريد أن يتطهر من الإثم الذي صنعاه معاً.

في الساعة العاشرة من تلك الليلة، كان يوهان يقود سيارته الفارهة بتَهَوُّر على الطريق الجبلي الممطر، خارجاً من اجتماع أعمال عاصف، وشعور بالاحتقان والغضب يستولي عليه إثر خلاف مالي. كانت زخات المطر تطرق الزجاج كأظافر من ماء، والرائحة المتسللة إلى السيارة تشبه الإسفلت المبلل وزيت المحركات.

فجأة، لمح سيارة أمامه تنساب بحذر. لم يكن يعلم أن الذي بداخلها هو خطيب أخته الطبيب. بتهور رجل لا يعرف معنى الانتظار، ضغط يوهان على دواسة البنزين، وتجاوز في منعطف خطر متجاهلًا الخط الأصفر المتصل. في ثوانٍ معدودة: أضواء باهرة، صرير كوابح يمزق العتمة، صوت انثناء المعدن المرعب، وتهشم الزجاج المتطاير في الليل. ثم صمت كامل.

حين فتح يوهان عينيه، كان جالساً على جانب الطريق، يده تنزف، والسيارة الأخرى مهشمة بالكامل ومنقلبة في المنحدر. وصلت الشرطة ومعها

سيارات الإسعاف، وقبل أن يصل نصف المعنيين، كان والد يوهان قد نزل من سيارته السوداء الفخمة.

لم يكن وصول الأب سريعاً بالمصادفة، بل نتاجاً طبيعياً لرأس مال اجتماعي ومعرفي يمكّنه من القفز فوق المساطر والقوانين. هاتف واحد للمدّعي العام، وآخر للضابط المسؤول، وهيبة شخصية تسكب الهلع في نفوس صغار المأمورين.

كان يوهان يتمتم بخوف، ووجهه شاحب كالورق: "لم أقصد... لم أره يا أبي... كان المطر غزيراً"...

قاطعه الأب بنبرة حاسمة كالحديد، دون أن ينظر في عينيه: "لا تقل شيئاً... صه"!

ثم التفت الأب إلى المحامي وإلى الضابط، وفي ظرف ساعتين فقط، بدأت الحقيقة الإجرائية تُعاد صياغتها في محاضر الشرطة: أصبح الشهود أقل جزماً، وعانت تسجيلات الكاميرات من عطل تقني مفاجئ، وكُتب في التقرير أن الطريق كان زلقاً بزيت مسكوب، وتحوّل الرجل الذي مات رسمياً إلى ضحية حادث سير مؤسف ناتج عن سوء الرؤية. ومُحيت الشبهات عن يوهان تماماً، ليخرج نقياً كما يخرج أهل النفوذ من كل مأزق.

في اليوم التالي، ارتدت كلير السواد بدل دانتيل الزفاف الأبيض. لم تبكِ أمام الناس، لم تصرخ، ولم تسأل الشرطة عمّا جرى. وقفت أمام النعش الملفوف بالورود البيضاء، ورأت يوهان واقفاً بين الحاضرين، وجهه كالميت، ووالده يقف إلى جانبه كالسدّ المنيع.

اقترب يوهان منها في المقبرة، صوته متهدج وعيناه محمرّتان: "كلير... أنا آسف... أقسم لك أنني لم"...

قاطعته بهدوء مرعب، وعيناها تخترقان جمجمته: "لا تُكمل".

"أنا"...

"أنا أعرف"، قالتها مرة أخرى، بنبرة لا تحمل أي أثر للعاطفة.

رفع يوهان رأسه براحة زائفة، ظاناً أنها تقصد أنها تعلم أنه لم يتعمّد. لكن كلير كانت تقصد شيئاً آخر تماماً: كانت تعلم أن أخاها قتل زوجها المستقبلي والرجلَ الذي كان خلاصَها، وأن والده محا الجريمة، وأن هذه العائلة تملك من القدرة الرمزية والمادية ما يجعلها فوق القصاص والعقاب.

بعد عام ونصف، مات الأب. في أيامه الأخيرة جمع العائلة حول سرير احتضاره. كان جسده ضعيفاً، لكن صوته ظل ينضحُ بالسلطة ذاتها. نظر إلى يوهان، ثم إلى كلير، وقال بصراحة جافة لا تقبل الجدال: "ما حدث في ذلك اليوم... انتهى ودُفن. لا أريد لأحد أن يفتح هذا الباب... لا أحد". كان ذلك أمراً ومرسوماً عائلياً ختامياً لا يقبل المساس.

دفنوا الأب، واكتملت المأساة. ظنّ يوهان أن الماضي قد مات، فعاد إلى تجارته، وبنى إمبراطوريته، وأحب كريم حباً جماً، وتحوّل الحادث مع مرور السنوات إلى ذكرى ضبابية.

أما كلير، فلم تنسَ. لم تنسَ خطيبها الذي كان سيكون خلاصها، ولم تنسَ ليلة تموز 2006، ولم تنسَ الطفل المسروق، ولم تنسَ أن يوهان عاش حياته دون أن يدفع فلساً واحداً من ثمن جرائمه ولا من ثمن امتيازاته

الموروثة. العالم برّأ يوهان، ويوهان نفسه اصطنع البراءة حتى صار يرى في إفلاته من العقاب حقاً طبيعياً له.

وهنا تحديداً بدأت خطة كلير. لم تُرد أن تقتله، ولا أن تودعه السجن، ولا أن تفضحه أمام الإعلام؛ فكل هذه الوسائل تقليدية ولا تفي بفظاعة الفقد. أرادت أن تجعله يعيش داخل جحيم معرفي يصنعه عقله بنفسه. أرادت أن تحوّل هابيتوس السيادة واليقين لديه إلى جحيم من الشك والمرض؛ أن تجعله يأكل نفسه، ويشك في زوجته سيلين، وفي صديق عمره ينال، وفي ابنه كريم، وفي عقله هو بالذات.

لم تكذب كلير مرّة واحدة في المراحل اللاحقة؛ فالهندسة الخبيثة لا تحتاج إلى كذب جليّ، بل تحتاج فقط إلى وضع الحقائق الصادقة في الأماكن الخاطئة وفي الأوقات المفصلية.

عطر ينال كان حقيقياً، وساعته التي نسيها في الحمام كانت حقيقية، وحب ينال لكريم كان حقيقياً وخالصاً. كلير لم تختلق شيئاً؛ كانت فقط تُحرّك القطع على رقعة الشطرنج بلمسات خفية، تاركة ليوهان مهمة التفسير المسموم.

وحين بدأ يوهان يبتعد عن ينال، ويفسّر كل إشارة على أنها خيانة ثلاثية الأركان، كانت كلير تقف في الظل، صامتة، تبتسم بروحها لا بشفتيها؛ لأنها علمت أن أباها ويوهان اللذين استخدما المال والسلطة لمحو الحقيقة، سيشهدان كيف يقوم العقلُ المسكونُ بالسيادة بتدمير صاحبه، دون حاجة إلى طلقة رصاص واحدة.

وهكذا وصلنا إلى عام 2024. الرائحة... ثم الساعة... ثم الفحص المخبري... ثم نسبة الصفر بالمائة. لينهار الرجل الذي لم يتعلم يوماً كيف يسقط، صريعاً

تحت أقدام السرّ الذي غرسته أخته قبل ثمانية عشر عاماً، في عتمة المشفى.

الفصل العاشر

الدوكسا

آب 2024

كان أول ما عاد إليه ليس صورة، بل صوتاً: صفير جهاز رتيب، متباعد، كأنه ساعة معطوبة تُصرّ على أن تُخبر أحداً بالوقت رغم أن عقاربها توقفت منذ زمن.

ثم عاد الضوء، أبيض حاداً، يتسلل من خلف جفنين ثقيلين كأنهما مصنوعان من الرصاص. حاول يوهان أن يرفعهما، فلم يستطع في المحاولة الأولى، ولا في الثانية. في المحاولة الثالثة، انشقّ العالم أمامه ببطء شديد، كستارة مبللة تُسحب بيد متعبة: سقف أبيض، أنبوب شفاف يتدلى من عمود معدني، رائحة كحول ومطهرات لا تشبه أي رائحة عرفها من قبل، ومع ذلك بدت له مألوفة على نحو غريب، كأنه التقاها في حلم لا يتذكره. من بعيد، وصله صرير عجلات عربة تُدفع على أرضية الممر، وصوت خافت لممرضتين تتحدثان عن مريض في غرفة أخرى، أصوات الحياة العادية التي مضت من دونه، غير مبالية بغيابه.

حاول أن يتكلم، فخرج من حنجرته صوت أجش لا يشبه صوته، مجرد نفخة هواء تحمل بقايا كلمة لم تكتمل، قبل أن يغلبه الإعياء ويرتد إلى شبه غيبوبة. بعد ساعات، سمع صوت كرسي يُدفع بسرعة، وخطوات متسارعة على البلاط، ووجهاً انحنى فوقه، وجهاً عرفه فوراً رغم أن خطوطه بدت أثقل مما تذكّر، أكثر إرهاقاً، أكثر... تقدماً في العمر، وخصلة شعر حائرة أفلتت من كعكة شعرها المشدودة وتدلّت على جبينها.

إنها كلير.

"يوهان؟" همست باسمه، وعيناها تتّسعان بمزيج من الذهول والرعب والأمل، وكأنها لا تصدّق أن الاسم الذي نطقته للتو له صاحب يستطيع أن يسمعه فعلًا. مدّت يدها نحو زر أحمر على جدار السرير، وضغطت عليه بإصبع يرتجف، ثم عادت إليه، وأمسكت بيده بقوة تجاوزت كل ما عرفه عن قبضتها الهادئة المعتادة. "يوهان حبيبي، هل تسمعني؟ ارمش لي إن كنت تسمعني."

رمش. رأى دمعة تنهمر على خدها فوراً، بلا مقدمات، بلا تلك السيطرة الباردة التي عرفها فيها طوال حياته.

لم يفهم شيئاً في تلك اللحظات الأولى. لم يكن يعرف أين هو، ولا منذ متى هو هنا، ولا لماذا يشعر أن جسده كله وزن ميت لا يطيعه. لكنه كان يعرف، بيقين غامض لا يستند إلى شيء ملموس، أنه عائد من مكان بعيد جداً، من رحلة طويلة مليئة بالوجوه والأصوات والخيانات والانهيارات، رحلة شعر أنها استغرقت سنوات من عمره، سنوات مثقلة بالشك والغضب والانتقام، سنوات عاشها بكل خلية فيه.

دخل أطباء، أضاءوا في عينيه بمصباح صغير، سألوه أسئلة بسيطة بدت له شديدة الغرابة: ما اسمك؟ كم عمرك؟ أفراد عائلتك؟ أجاب عن كل سؤال بصوت متقطع، واثقاً من إجاباته، حتى سُئل السؤال الأخير: "هل تعرف في أي سنة نحن؟"

فكّر للحظة، ثم قال، بثقة من لا يشك في شيء: "2024."

تبادل الأطباء نظرة سريعة لم يفهم معناها. قال أحدهم، بحذر مهني مدروس، وهو يدوّن ملاحظة على لوحه دون أن يرفع عينيه: "هذا صحيح."

لم يفهم يومها لماذا بدت تلك الإجابة البسيطة إنجازاً في عيونهم.

جلست كلير إلى جانبه بعد أن غادر الأطباء، ممسكة بيده كأنها تخشى أن يفلت منها إن تركتها لثانية واحدة. حاول أن يتحدث، فأشارت إليه أن يصمت، أن يستريح، أن كل شيء سيُشرح له بالتدريج. لكنه، حين استعاد قدرته على الكلام بعد ساعتين، لم يستطع الانتظار.

"كريم"، قال، بصوت لا يزال ضعيفاً لكنه واضح. "أريد أن أرى كريم.. وسيلين.. أين هما يا أختي؟"

توقفت كلير عن الحركة تماماً. ثبتت عيناها عليه، ونظرت إليه نظرة طويلة مثقلة بشيء لم يستطع تسميته بعد؛ لم يكن خوفاً محضاً، ولا حزناً محضاً، بل ذلك المزيج الذي يعتري من يعرف أنه على وشك أن ينطق جملة ستُغيّر كل ما يعرفه المستمع عن حياته. أفلتت يده من قبضتها لثانية، وهي تعيد ترتيب أفكارها، ثم أمسكتها من جديد بقوة أكبر، كأنها تستعد لتلقّي صدمة الجملة معه، لا له وحده.

"يوهان.. يا أخي"، قالت أخيراً، ببطء شديد، وكأنها تنتقي كل كلمة كما يحدد الجرّاح موضع شقّه. "كم تظن أنك بقيت هنا؟"

"لا أعرف. أياماً؟ أسبوعاً؟" ثم، وقد لمح شيئاً في وجهها يوحي أن الجواب أبعد من ذلك بكثير، أضاف بصوت أخفت: "كم؟"

"ثلاثة عشر عاماً، يوهان."

لم يفهم الجملة في البداية. ظنّ أنه أساء السمع، أو أن دواء ما لا يزال يُشوّش حواسه. ضحك ضحكة قصيرة جافة، أشبه بمحاولة لطرد فكرة سخيفة، ثم رأى أن كلير لا تضحك، ولا تبتسم، وأن يديها ترتجفان حول يده.

"ذلك الحادث... حادث السيارة"، تابعت، بصوت متهدّج بدأ يفقد سيطرته المهنية شيئاً فشيئاً. "في 2011. قبل يوم زفافي، خرجت من مكتبك مسرعاً، وارتطمت سيارتك بسيارته. لم يمت أحد، يوهان. أنت دخلت غيبوبة عميقة، وهو نجا بإصابات أقل، وتعافى بعد أشهر."

"لكنه مات، كانت سيارة خطيبك وهو مات"، قال يوهان، بصوت طفولي مذهول، غير مصدّق لكلماته هو نفسه وهي تخرج من فمه. "رأيته... رأيت الجنازة، رأيت أبي يمحو القضية، رأيتكِ ترتدين السواد بدل ثوب الزفاف... رأيتكِ تنتقمين."

توقف فجأة، لأنه رأى المحبس الذهبي في إصبع يد كلير اليسرى، بسيطاً، رفيعاً، خالياً من أي حجر، تماماً كما كانت تفضّله دائماً.

نظرت إلى نظرته، ثم إلى الخاتم، وقالت بصوت هادئ حزين، وهي تديره حول إصبعها بحركة لا إرادية: "تزوجنا بعد ستة أشهر من الحادث، يوهان. وأنت لم تكن حاضراً في الزفاف، لأنك كنت هنا، في هذه الغرفة وعلى هذا السرير بالذات، لا تتحرك."

جلس يوهان صامتاً طويلًا، يحاول أن يوفّق بين صورتين لا تلتقيان: جنازة رآها بأمّ عينيه، بكل تفاصيلها، رائحة الورود البيضاء، برودة الرخام تحت قدميه، صوت يوهان الآخر، يوهان الذي عاش في رأسه، يهمس اعتذاراً لأخته فوق نعش لم يكن هناك أصلًا. وامرأة أمامه الآن، حيّة، متزوجة من الرجل نفسه الذي دفنه في تلك الذاكرة المزيّفة.

"وأبي؟" سأل أخيراً، بصوت واهن.

"توفي منذ سبع سنوات، بشكل طبيعي". توقفت لحظة، ثم أضافت بحذر: "لم يحدث أي حادث آخر بعد ذلك، يوهان. لا أعرف عمّا تتحدث."

استغرق الأمر أياماً، لا ساعات، حتى بدأ العالمان يفترقان بوضوح في رأس يوهان: العالم الذي عاشه، بكل غناه، بكل تفاصيله الدقيقة التي شعر بها حقيقية كنسيج يده على الملاءة، والعالم الذي يستيقظ فيه الآن، أفقر تفصيلًا، لكنه الوحيد الذي ترك أثراً في العالم الخارجي.

سأل كلير، في أحد تلك الأيام، وهو يحدّق في يديها وهي تقشّر له تفاحة بحركات أبطأ من الحركات السريعة الحاسمة التي عرفها فيها: "هل كنتِ يوماً... هل فعلتِ يوماً شيئاً يشبه ما رأيته؟ التبديل، الطفل، تلك الليلة في المستشفى؟."

توقفت كلير عن التقشير، والسكين معلّقة في الهواء، ونظرت إليه بحيرة حقيقية. "أي تبديل؟"

فروى لها، بصوت متردد، مخجل من نفسه، تفاصيل تلك الليلة كما عاشها في غيبوبته: امرأة ماتت بعد أن وضعت طفلًا حياً، وكلير التي أقنعت خطيبها بتبديله بابن سيلين الذي مات فور ولادته.

أطرقت كلير برأسها طويلًا، ووجهها يفقد لونه تدريجياً، ثم قالت، بصوت مثقل: "كانت تلك الليلة حقيقية جزئياً، يوهان. كانت هناك امرأة، أصابتها شظية، وضعت طفلًا ميتاً، ثم ماتت هي أيضاً. كنت أنا من أشرفت على تلك الحالة، نعم. لكن سيلين، في الغرفة المجاورة، وضعت كريم حياً وسليماً في الليلة نفسها، دون أي مضاعفات تُذكر. عقلك، في مكان ما، أخذ الحادثتين المنفصلتين، ونسج بينهما خيطاً لم يكن موجوداً قط."

جلس يوهان صامتاً، يستوعب أن ذنباً لم يقترفه أحد قد اخترعه عقله من مادة خام حقيقية، كأن الحقيقة والوهم يستخدمان الطوب نفسه، لكن بترتيب مختلف تماماً.

"كريم ابني إذن"، قال أخيراً، بصوت يشبه من يتلمّس أرضاً بعد سقوط طويل. "بالفعل. ابني أنا."

"نعم"، قالت كلير بهدوء "كان ابنك دائماً."

خرجت كلير من الغرفة بعد قليل، وخطواتها أثقل مما دخلت به. وجدت زوجها في ممر المستشفى، يوقّع على أوراق مريض آخر، فانتظرته حتى أنهى، ثم جذبته من كمّ معطفه الأبيض إلى ركن هادئ قرب النافذة، حيث كانت شمس آب المائلة إلى الغروب تلقي خيوطاً ذهبية باهتة على البلاط.

"أخبرني بشيء يجعل ما قاله لي منطقياً"، قالت، وصوتها يخونها للمرّة الأولى منذ أسبوعين كاملين من الصمود "لأنني، وأنا أستمع إليه، شعرت أنني أعرف تفاصيل حياتي أنا أكثر مما يعرفها هو، وهذا... هذا مرعب، أن يروي لك أحدهم حياتك بثقة أكبر من ثقتك بها."

جلسا على مقعدين معدنيين باردين، وأخذ زوجها يفرك عينيه المتعبتين قبل أن يتكلم، بصوت من اعتاد أن يشرح أموراً صعبة لأناس خائفين.

"تخيّلي غرفة مظلمة تماماً"، قال "وفيها إنسان محروم من كل حواسه تقريباً، لا يرى، لا يسمع بوضوح، لا يشعر بجسده. هذا الإنسان، رغم كل هذا الحرمان، لا يستطيع أن يقبل الفراغ. عقله يكره الفراغ أكثر مما يكره أي شيء آخر، حتى أكثر مما يكره الألم. فحين لا يجد قصة جاهزة، يبدأ باختراع واحدة، بأي مادة متاحة، مهما كانت تافهة."

"أي مادة؟"

"رائحة عطر مرّت بها ممرضة قرب سريره في لحظة عابرة. كلمة سمعها بلا وعي، ربما همستِها أنتِ نفسك يوماً وأنتِ تتحدثين إليه عن كريم، أو قالتها ممرضة عن طفل مريض آخر في الغرفة المجاورة، فالتقطها دماغه وحده هو، وثبّتها في مكان لا يخصها. برودة معدنية لامست معصمه حين كان الممرض يُبدّل له سواراً طبياً، فتحوّلت في داخله إلى ساعة، ثم إلى قصة كاملة حول تلك الساعة. عقله لم يكن نائماً، كلير. كان يعمل بلا توقف، طوال ثلاثة عشر عاماً، كنسّاج أعمى يجلس في الظلام، يمرر خيوطاً عشوائية بين أصابعه، ولأنه لا يحتمل أن تبقى بلا شكل، يحيكها، ليلة بعد ليلة، في نسيج واحد متصل، حتى صدّق هو نفسه، في النهاية، أنه النسيج الذي وُلد به لا الذي نسجه بيديه."

صمتت كلير طويلًا، تتأمل يديها في حجرها، ثم سألت، بصوت أخفت: "ولماذا هذه القصّة بالذات؟ لماذا أنا الشريرة، وسيلين الخائنة، وأنت الميت؟"

ابتسم زوجها ابتسامة حزينة، وأمسك بيدها: "لأن الألم الذي لا نفهمه لا نستطيع أن نحبه ولا أن نكرهه، فقط يُتعبنا بلا معنى. أما الألم الذي له اسمٌ، وله وجهٌ نلومه، فنستطيع أخيراً أن نتنفس تحت وطأته. أخوكِ احتاج عدواً، لأن العدو أهون من فراغٍ لا يفسّر شيئاً. نحن لا نخاف الوحوش يا كلير، نحن نخترعها، لأن وحشاً نراه أرحم من ظلام لا شكل له."

استغرب يوهان عدم زيارة ابنه له طوال الأيام الماضية، ولم يكفّ عن السؤال عنه والإلحاح في طلب رؤيته. وأمام إصراره، اضطرت كلير إلى الذهاب بنفسها إلى كريم لإقناعه وإحضاره إلى المستشفى.

جاء كريم بعد ظهر ذلك اليوم. وحين انفتح الباب، شعر يوهان بشيء يتقلّص في صدره لدرجة الألم: شاب طويل، بملامح لم تعد ملامح الطفل ذي الخمس سنوات الذي حفظه في ذاكرته، بل ملامح رجل تقريباً، حادّة وجادّة، تحمل شبهاً بيوهان نفسه لم يتوقعه؛ في زاوية الفك، في طريقة وقوفه، وفي نظرة العينين اللتين تفحصان الغرفة قبل أن تستقرا على أي شيء. رائحة عطر خفيفة، حادة، شبابية، لا علاقة لها بأي رائحة حفظها يوهان عن ابنه الصغير، سبقته إلى الغرفة قبل أن يدخل.

لكن العينين اللتين استقرتا عليه الآن كانتا حذرتين، مهذبتين... وبعيدتين.

"مرحباً"، قال كريم، ووقف عند عتبة الباب، لم يتقدم أكثر، كأن جسده نفسه لم يكن مستعداً بعد لتقصير المسافة، ويداه في جيبي سترته، بوضعية من يستعد للمغادرة أكثر مما يستعد للبقاء. "الطبيب قال إنك... إنك تتذكر أشياء كثيرة الآن.. حمداً لله على سلامتك."

"كريم.. يا عمري"، قال يوهان، وصوته ينكسر على الاسم كأنه يمسك بشيءٍ هشٍّ بعد طولِ انقطاع، ويداه ترتجفان وهو يمدّهما نحوه بلا وعي. "تعال يا حبيبي.. اقترب.. أنا أبوك."

توقّف كريم لحظة طويلة، غير مريحة، عيناه تتنقلان بين يدي يوهان الممدودتين ووجهه، ثم تقدم خطوتين، لا أكثر، وجلس على الكرسي البعيد قرب النافذة، لا على حافة السرير. "أعرف"، قال، بنبرة محايدة مهذبة، النبرة التي يستخدمها المرء مع أستاذ سابق قابله بعد سنوات طويلة، لا مع أب. "أمي أخبرتني كل شيء عنك. عن الحادث. أنا آسف لما مررت به."

نظر يوهان إلى المسافة الفاصلة بينهما، وشعر أن الجدران نفسها تتسع لتزيد الغربة. لم يحتمل هذا الانضباط البارد. "كريم... أرجوك، تعال إلى هنا..دعني أضمك فقط."

تردد كريم للحظة، ثم نهض ببطء وطاعة مهذبة. انحنى فوق السرير، وما إن أصبحت أضلاعه على مرمى لمسة، حتى طوّق يوهان عنقه بذراعيه بكل ما بقي في جسده الضامر من قوة. أطبق عليه كمن يمسك بأخر أمل له في الحياة، ودفن وجهه في تجويف عنق ابنه، يستنشق رائحته بلهفة مجنونة؛ لم تكن رائحة بودرة الأطفال ولا الصابون الناعم الذي حفظه، بل رائحة عطر حاد، رجالي، غريب تماماً.

طال العناق. أغمض يوهان عينيه وشدّ قبضتيه على كنزة ابنه، يحاول أن يختصر ثلاثة عشر عاماً من الغياب في ثوانٍ، أن يعوّض كل ليلة لم يغطّه فيها، كل عيد لم يمسك بيده، وكل حزن لم يمسحه عن عينيه. كان يريد أن يذيب السنوات بينهما بالحرارة وحدها.

لكن تحت ذراعيه المرتجفتين، كان جسد كريم مسكوناً برجفة هادئة من التحفظ. لم يتراجع كريم، ولم يدفعه، لكنه ظل يربت على ظهر يوهان برفق منتظم ومحسوب، بكتفين صلبين لم ينحنيا لاحتضانه، وبأنفاس منتظمة لم تتسرع ولم تتأثر. كان يعطيه العناق كما يُعطى الدواء لمريض؛ برحمة، وباحترام... ولكن دون حرارة.

حين أفلت يوهان ابنه أخيراً وهو يلهث من الجهد والمشاعر، وجد كريم يبتعد بضع خطوات، ويعيد تسوية كنزته بهدوء، ورجع إلى الكرسي البعيد دون أن تدمع عيناه.

سأله يوهان عن دراسته، عن أصدقائه، عن أشياء صغيرة يحاول من خلالها أن يعيد بناء جسر انهار من تحته وهو نائم، وأجاب كريم عن كل

سؤال بأدب تام، بتفاصيل كافية لكن لا أكثر، وكأنه يقدّم تقريراً مهذباً لشخص يحترمه دون أن يعرفه.

وفي منتصف الحديث، حين سأله يوهان عن نشاطاته، ردّ كريم بعفوية تامة، وقد ارتخت كتفاه قليلًا للمرة الأولى في الحديث: "بابا اصطحبني الأسبوع الماضي لمشاهدة مباراة..."

توقف يوهان تماماً.

"بابا؟!" سأل، بصوت لا يخفي شيئاً.

أدرك كريم للتو ما قاله، وتلوّنت وجنتاه بحمرة خفيفة من الإحراج، وشرد بصره نحو النافذة للحظة قبل أن يعود إلى يوهان، لكنه لم يتراجع عن الكلمة. "ينال.. أقصد ينال.. لكنني... اعتدت أن أناديه هكذا. منذ أن كنت في الخامسة تقريباً، حين... حين حدث الأمر لك."

لم يقل يوهان شيئاً. أطبق فكّيه بقوة كافية ليشعر بألم خفيف في صدغيه، وأمسك بحافة الملاءة بيد بدأت تشتد قبضتها دون وعي منه، بينما شيء ما، شيء قديم متجذر في أعماقه، بدأ يستيقظ، ببطء، مثل حيوان جريح يشمّ رائحة العدو قبل أن يراه.

طلب أن يرى سيلين وينال معاً، بعد أسبوعين، حين سُمح له أخيراً بمغادرة المستشفى إلى بيت صغير استأجرته له كلير قرب المستشفى، ريثما يستعيد قوته. وكان، في تلك الأسابيع، قد بدأ يستعيد بعض القدرة على الحركة: يجلس بمفرده، يمشي خطوات قليلة متكئاً على إطار معدني، يشعر بأن جسده، رغم ضموره، بدأ يعود إليه شيئاً فشيئاً.

لكنه لم يكن مستعداً لما شعر به حين دخلا الغرفة معاً.

كانت سيلين التي دخلت امرأة أخرى تماماً عن تلك التي حفظها في ذاكرته: شعرها الكستنائي الداكن الطويل، الذي اعتاد أن يراه محرراً على كتفيها في كل ليلة من حياتهما المشتركة، صار الآن قصيراً عند خط الفك، مصبوغاً بلون بنّي فاتح لم تجرّبه معه يوماً، وكأن جسدها نفسه قرر، في مرحلة ما من غيابه، أن يصبح شخصاً آخر لم يعرفه. على جانب حاجبها الأيمن، ندبة رفيعة صغيرة لم تكن هناك من قبل، ربما من سقطة، ربما من جراحة لا يعرف عنها شيئاً، تفصيل دقيق تافه في ذاته لكنه ذكّره فجأة، وبقسوة، بكل التفاصيل الأخرى التي فاتته: مرض عابر، ضحكة جديدة، عادة تخلّت عنها، عادة اكتسبتها. لم تكن رائحتها المعتادة، تلك الرائحة الحمضية الخفيفة التي كان يتعرف بها عليها في الظلام دون أن يفتح عينيه، هي الرائحة التي دخلت معها الغرفة الآن؛ عطر آخر، أكثر دفئاً، غريب عليه تماماً.

رآهما يقفان جنباً إلى جنب على عتبة الباب، بألفة عفوية لم تُصطنع، ينال بيده الممتدة نصف اتكاء خلف ظهر سيلين دون أن يفكر، وسيلين تميل نحوه بجزء من وزنها بلا وعي، بالطريقة التي يميل بها جسدان اعتادا على بعضهما طويلًا، وشعر يوهان بشيء ينفجر في صدره لم يكن حزناً هذه المرة، بل ناراً، نار الرجل الذي أمضى ثلاثة عشر عاماً يحلم أنه سيّد كل غرفة يدخلها، فإذا بالغرفة نفسها لم تعد تعترف به.

"اخرجا"، قال، بصوت أراده أن يخرج أمراً حازماً كأوامره القديمة، لكنه خرج أجش متقطعاً، أشبه بنباح جريح. حاول أن يرفع صوته أكثر: "اخرجا من بيتي! هذا بيتي! أنا يوهان، أنا صاحب القرار هنا، أنا..."

وحاول أن ينهض.

دفع بيديه على حافة السرير بكل ما تبقى من عزيمته، بالطاقة نفسها التي شعر بها في حلمه الطويل وهو يواجه أخته المنتقمة، وهو يقتحم بيتاً جبلياً مظلماً، وهو يفرض إرادته على العالم كما فعل طوال حياته. لكن ساقيه، الضامرتين بعد ثلاثة عشر عاماً من السكون التام، لم تحملاه أكثر من نصف ثانية قبل أن تنهارا تحته كلوحين نَخِرَيْن. سقط إلى الأمام، فتشابكت يده بأنبوب المصل حتى انخلع من مكانه وسالت منه قطراتٌ على الأرض. حاول أن يستند إلى إطار المشي المعدني بيدٍ لا تزال ترتجف من الجهد الهائل، فانزلق الإطار على البلاط، وسقط يوهان بكامل جسده على الأرض، بصوت اصطدامٍ أخرقَ أشدّ إذلالًا من أي صوتٍ سمعه في حياته.

حاول أن يصرخ، فلم يخرج من حنجرته سوى حشرجة خافتة، وحاول أن يزحف نحو الباب بذراعين لا تحملان وزنه، فلم يتقدم إصبعاً واحداً. رقد هناك، على البلاط البارد، عاجزاً تماماً، رجل كان يظن نفسه، قبل لحظات فقط في رأسه، سيداً على مصائر الجميع، وها هو الآن لا يقوى حتى على انتزاع أنبوب بلاستيكي من وريده.

انحنى ينال فوراً ليساعده، فصرخ يوهان بما تبقى من صوته: "لا تلمسني أيها الخائن!" لكن الصرخة نفسها خانته، خرجت واهنة كأنين طفل، ولم يستطع حتى أن يمنع يدي ينال القويتين وهما ترفعانه بلطف عن الأرض وتعيدانه إلى سريره، بينما هو ملقى بينهما، بلا حول ولا قوة، يبكي بصمت من الذل، لا من الحزن.

وفي تلك اللحظة بالذات، وهو مستلقٍ عاجز، ووجهه على بعد شبر واحد من معصم ينال الذي كان لا يزال يسنده، وقعت عيناه على الساعة.

ساعة فضية بسيطة، حزامها جلدي داكن، وعلى زجاجها خدش صغير مائل، بالطول نفسه، بالزاوية نفسها تماماً، التي رآها ألف مرة في حلمه الطويل، حين كان يقلّبها بين أصابعه في غرفة نومه، يتحسس ذلك الخدش تحديداً بإبهامه، ويسأل نفسه لمن تكون هذه الساعة التي نسيها أحدهم تحت طيّة شرشف سريره.

توقف قلبه للحظة.

نظر إلى ينال، الذي لم يلحظ شيئاً، ثم عاد ينظر إلى الساعة، وشعر ببرودة تسري في جسده أعمق من أي خدر خلّفه السقوط. ربما كانت مصادفة. ربما كانت ساعة عادية شائعة الشكل، وخدشاً عابراً يحدث لآلاف الساعات المشابهة. لكن يقيناً قديماً، من ذلك النوع الذي لا يُبنى على منطق بل على شيء أعمق من المنطق، بدأ يهمس له أن لا شيء في هذا العالم بريء من كل هذا التطابق.

لم يقل شيئاً. أغمض عينيه، وترك نفسه يُحمل إلى السرير بصمت، بينما سؤال واحد بدأ يستقر في مكان ما عميق داخله، مكان لن يبرحه بعد الآن: هل كان عقله، طوال تلك السنوات، يهذي بالكامل؟ أم كان، في مكان ما تحت كل ذلك الوهم، يتلمّس شيئاً حقيقياً لم يجرؤ أحد على قوله له وهو مستيقظ؟

جلست سيلين قربه بعد أن هدأ، على الكرسي الذي كان كريم يجلس عليه قبل أيام، بمسافة مدروسة، لا قريبة بما يوحي بعودة، ولا بعيدة بما يبدو قسوة. لم تحاول أن تفسّر شيئاً، ولم تعتذر عن مشهد لم يكن بيدها. قالت فقط، بصوت هادئ لا يحمل أي محاولة للدفاع عن نفسها، وعيناها ثابتتان على يديه المرتجفتين فوق الغطاء لا على وجهه:

"بعد ثلاث سنوات من الغيبوبة، الأطباء قالوا إن احتمال استيقاظك يتضاءل كل شهر. لم أتخلَّ عنك بسهولة، يوهان. لكن كريم كان يكبر، وكان يحتاج إلى أب حاضر، لا صورة على جدار. وينال كان هناك، كل يوم تقريباً، منذ الحادث. لم يحدث الأمر بسرعة، ولا بخفاء. حدث ببطء شديد، حتى بدا، في يوم من الأيام، الشيء الوحيد المنطقي الذي يمكن أن يحدث."

لم يعد يملك يوهان طاقة الغضب التي حاول أن يستحضرها قبل قليل، فقد تركها كلها على البلاط. جلس فقط، منهكاً، يستمع، ويشعر بشيء أثقل من الغضب يستقر في صدره: حزن هادئ لا يشبه أي حزن عاشه في حلمه الطويل، لأنه لم يكن حزن رجل خُدع، بل حزن رجل تأخر، وعرف للتو، بجسده قبل عقله، أن التأخر أحياناً لا يُعالَج، لا يُغتفر، ولا حتى يُشرح.

في الليلة نفسها، بعد أن غادر ينال وسيلين، جلس يوهان وحده عند النافذة، على كرسي متحرك ما زال يمقت الاعتماد عليه، والمدينة تحته تتلألأ بأضواء لا يعرف نصفها، مبانٍ جديدة ارتفعت في غيابه، شوارع لم تكن هناك، حياة كاملة استمرت في النمو فوق غيابه كما تنمو الأعشاب فوق قبر لا يزوره أحد. استعاد الأشهر الأخيرة من حلمه: الرائحة على الوسادة، الساعة المنسية، الفحص الذي أظهر نسبة الصفر بالمائة، خطف سيلين في ذلك البيت الجبلي المظلم، سجن ينال. كل تلك التفاصيل الدقيقة، المحسوسة، التي شعر بها حقيقية كنبض قلبه، لم تكن سوى مادة صنعها عقله من مخاوفه القديمة: خوفه من ألا يكون كريمٌ ابنه فعلًا، خوفه من أن يخسر سيلين لرجل آخر، خوفه من أن أخته، التي أحبها طوال حياته، تحقد عليه وتخفي عنه شيئاً لم يجرؤ يوماً على تسميته.

لكن صورة الساعة ظلت عالقة، لا تريد أن تُنسَج في تفسير كلير الهادئ عن الروائح العابرة والكلمات المسموعة سهواً. فكّر، وهو يحدّق في

أضواء المدينة البعيدة التي لم تعد المدينة نفسها التي تركها، في أن الإنسان، حين يعجز عن تفسير ألمه، يخترع له شكلًا؛ يمنحه شريراً يستحق الكراهية، وضحية تستحق الرثاء، وسراً يستحق الكشف، لأن الألم بلا شكل لا يُحتمل، بينما الألم الذي له قصة، حتى لو كانت كاذبة، يصبح أخف وطأة، لأنه على الأقل يعني شيئاً.

"نحن لا نبحث عن الحقيقة"، فكّر، وشعر أن هذه الجملة بالذات ستبقى معه بقية حياته، "نحن نبحث عمّا يجعل الحقيقة تُحتمَل."

وربما هذا، فكّر بمرارة هادئة لم يعرفها من قبل، هو معنى الاعتقاد نفسه: أن يتحول الشيء إلى حقيقة، لا لأنه صحيح، بل لأننا نحتاج إليه أن يكون كذلك، طويلًا بما يكفي لننسى أننا نحن من اخترناه لنا. الدوكسا لا تُفرض علينا من الخارج، فكّر، بل نبنيها نحن بأيدينا، حجراً حجراً، من الرعب من أن نبقى بلا تفسير، ثم نُطلق عليها اسم اليقين.

لكنه لم يستطع، رغم كل هذا اليقين الفلسفي الهادئ الذي حاول أن يرتديه كدرع، أن يمحو من رأسه ذلك الخدش الصغير المائل على زجاج ساعة رآها في عالمين مختلفين تماماً.

في مساء ذلك اليوم نفسه، على شرفة صغيرة في الطابق العلوي من بيت سيلين وينال، حيث كانت رائحة الياسمين الليلي المتسلق على الدرابزين تعبق في الهواء البارد، وقفت سيلين وحدها للحظة، تراقب أضواء المدينة وذراعاها ملتفتان حول نفسيهما من البرد، قبل أن يخرج ينال إليها، ويقف خلفها، ويضع يده على كتفها بحركة اعتادا عليها معاً منذ سنوات طويلة.

"كيف بدا لك؟" سألها بصوت خفيض، وشفتاه قريبتان من أذنها كأنه يخشى أن يسمعهما أحد رغم أنهما وحدهما تماماً.

"تائهاً"، قالت سيلين، دون أن تلتفت، وصوتها يرتجف قليلًا على الكلمة الأخيرة. "مثل رجل يحاول أن يمسك بحبل انقطع منذ زمن طويل، ولا يزال لا يصدّق أن يديه فارغتان."

صمتا قليلًا، والريح تحرّك أطراف الستارة خلفهما بهدوء. لاحظت سيلين، من طرف عينها، أن ينال يعبث بحزام ساعته الجلدي، حركة صغيرة عصبية لم تعتدها منه، فوضعت يدها فوق يده لتوقفها، دون أن تسأل عن السبب.

"لم أقل له"، قالت سيلين أخيراً، بصوتٍ أهمسَ من الريح نفسها، وهي تغمض عينيها للحظة كمن يضع حملًا ثقيلًا أرضاً بعد حمله طويلًا. "يوهان لم يعرف بعد السبب الحقيقي الذي كان وراء ذلك الحادث."

توقفت يد ينال على كتفها للحظة، ثم أطبقت بخفة أشد، وشعرت سيلين بنَفَسه يتسارع خلفها للحظة قبل أن يهدأ من جديد.

"لا يجب أن يعرف" قال، بصوت لا يحمل أي تردد.

ولم تُضِف سيلين شيئاً آخر، واكتفت بالنظر إلى المدينة التي لم تكن يوماً بحاجة إلى معرفة كل أسرارها لتستمر في الإضاءة، ليلة بعد ليلة، كما لو أن شيئاً لم يكن؛ فبعض الحقائق، فكّرت وهي تراقب الأضواء البعيدة تنبض كقلوب صغيرة لا تعرف أصحابها، لا تُصنع لتُقال، بل لتُحمَل، وحيدة، إلى الأبد، من يعرفها فقط.

هذا ما حدث

"دوكسا" - كلمةٌ يونانية قديمة لا تعني الحقيقة، بل ما نظنّه حقيقة: يقينٌ لا نبنيه، بل نرثه ونمشي عليه دون أن نسأل من صبّ له أساساته.
يوهان وُلد وهو يعرف كل شيء عن العالم، إلا شيئاً واحداً: أن يشكّ. فحين تهمس له الحياة، ذات مساء، بأنّ شيئاً ما ليس كما ظنّ، لا يجد في داخله عضلة الشكّ التي يحتاجها ليواجه تلك الهمسة، فيبدأ ببناء حقيقته الخاصة: من رائحةٍ، وساعةٍ منسية، وكلمةٍ سقطت سهواً من فم طبيبٍ متعب.
هذه روايةٌ عن اللحظة التي يكتشف فيها الإنسان أن أخطر أعدائه ليس من يكذب عليه، بل عقله هو، حين يُترك وحيداً في العتمة بلا شكٍّ يهذّبه.
فكم من يقينٍ نحمله اليوم... لم يُختَبَر بعد؟

فراس جبران